تقديم

المواضيع التي تستحق البحث في تاريخ العرب والإسلام كثيرة، وأجدرها - فيما أعتقد - موضوع تاريخ الحروب الصليبية، الذي تمثل في العصر الحديث بشكله القديم، وبشكل مولد عنه هو الصهيونية، فالصهيونية ولدت في الغرب الصليبي، ورعيت من قبل دول الغرب الكبرى، ومازالت كذلك، إذا أقررنا بأن زعامة الغرب راسية الآن بأيدي الولايات المتحدة ثم إنكلترا، ويستدعي البحث في تاريخ الصهيونية تناول تاريخ اليهودية منذ أعمق العصور، والبحث في التاريخ اليهودي صعب جداً، ومتداخل مع تاريخ المسيحية منذ النشأة حتى العصر الحديث، وهو أيضاً متداخل مع شطر كبير من الفكر الإسلامي الرائج، عن طريق ما يعرف باسم الإسرائيليات، فما من فكر دخيل أضر بالفكر الإسلامي خاصة في ميادين التفسير، والأخبار والقصص والزهد مثل الإسرائيليات، وعجباً كل العجب كيف أقدم بعضهم على تأويل كلام الله جل وعلا وتفسيره بهرف الحاخامات، ومازالوا يفعلون، ولاشك أن هؤلاء من ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: 104]!.

وسلف لي تناول موضوع التاريخ اليهودي الخاص والعام، وأنا مستمر في البحث فيه والتعمق بصورة علمية، بعيدة عن العواطف والانفعالات، وغالباً ما أعطت الكتابات اليهودية الجدول الزمني التالي لمجمل أحداث تاريخهم - حسب مزاعمهم -.

ومع التنبيه منذ البداية أنه لا توجد علاقة بين اليهود وبين بني إسرائيل القدماء، وأن يهود العالم الحالي، ويهود العصور السالفة هم عبارة عن عناصر من بعض الشعوب تحول أسلافها إلى اليهودية، مثل يهود الخزر الذين هم أسلاف اليهود الغربيين، وتاريخ اليهود الخزر هو الذي أقدم لأهم دراسة حوله الآن، ولن أكتفي بمحتويات هذه الدراسة، بل سوف أتناول مسألة: متى ظهرت اليهودية، وما آل إليه بقايا يهود الخزر منذ القرن السابع عشر للميلاد حتى قيام الحركة الصهيونية، والجدول الذي سلفت الإشارة إليه هو التالي:

2000 ـ 1500 ق. م: الزمن الذي عاش فيه إبراهيم واسحق ويعقوب.

1260 ـ 1250 ق. م: الزمن المعطى للخروج من مصر بقيادة موسى.

1200 ـ 1000 ق. م: الاستقرار في أرض كنعان بقيادة يوشع بن نون.

1001 ـ 969 ق. م: تأسيس مملكة داود في القدس.

969 ـ 931 ق. م: ملك سليمان وبناء الهيكل الأول.

931 ـ 913 ق. م: ملك رحبعام بن سليمان، وانقسام المملكة إلى مملكتين في الشمال: مملكة إسرائيل، وفي الجنوب مملكة يهوذا.

931 ـ 910 ق. م: ملك يربعام بن سليمان على مملكة إسرائيل.

885 ـ 874 ق. م: قيام مملكة بيت عمري التي كانت حاضرتها ما عرف باسم مدينة سمر أو السامرة.

874 ـ 853 ق. م: ملك أحاب بن عمري.

723 ـ 722 ق. م: استيلاء الآشوريين على سمر (السامرة) وتهجير أهلها وإحلال قوم جدد محلهم.

605 ـ 586 ق. م: سقوط الدولة الآشورية، وقيام دولة بابل الثانية (الكلدانية).

587 ـ 538 ق. م: السبي البابلي.

538 ق. م: استيلاء قورش على بابل.

538 ـ 333 ق. م: الحكم الاخميني لبلاد الشام، وكذلك مصر.

336 ق. م: ظهور الاسكندر المقدوني.

141 ق. م: قيام كيان الحشمونيين أو المكابيين.

63 ق . م : استيلاء بومبي باسم روما على بلاد الشام .

37 ق . م ـ 4 م : ملك هيرود الكبير .

66 ـ 73 م : تدمير فسبسيان الروماني لفلسطين وإبادة أهلها .

ولدى التعامل مع الأرقام المبكرة من هذه التواريخ المفترضة لم يمكن العثور على ما يؤكد دخول إبراهيم إلى فلسطين ، وبينت الدراسات النقدية للنصوص التوراتية ، أن أخباره أضيفت إليها في تاريخ لاحق ، في حوالي القرن الميلادي الأول ، وأودعت في سفر التكوين ، ثم إن عمليات المسح الكامل للبحر الميت لم تكشف عن غرق مدينتي سدوم وعمورة فيه ، وحين ذهب باحثان أمريكيان إلى أن موقع «باب الذرا» هي سدوم و«النميرية» هي عمورة تبين أن هذين الموقعين قائمان على مقربة من البحر الميت ، وليس فيه ، وأن الحياة توقفت فيهما في عام (2350 ق . م) ، ولم يعثر في البقايا الأثرية على ما يشير إلى حياة غير عادية ، لاسيما بعد اكتشاف المقابر هناك ، وفحص بقايا الهياكل العظمية ، ولا أستهدف هنا نفي خبر إبراهيم الخليل ، ولا خبر قوم لوط ، بل أريد التذكير بأن حياة إبراهيم مرتبطة مع مكة المكرمة ، وبناء البيت الحرام فيها ، وأن الشذوذ الجنسي لم يمارس في بلاد الشام ، وأن القرآن الكريم حين أتى على ما حل بقوم لوط لم يحدد لا الزمان ولا المكان . (انظر سورة هود ـ الآيات : 73 ـ 83) .

وفيما يتعلق بموضوع الخروج ، وقبل ذلك الدخول إلى مصر ، فهو مختلف تماماً ، لأن وصف البلاد التي كان منها الخروج لا ينطبق على مواد سفر الخروج ، ثم ما من واحد من ملوك مصر ، لاسيما أيام الهكسوس حمل لقب فرعون ، بل عرف الملوك بملوك مصر العليا والسفلى ، أو هما معاً ، والفرعون بالعربية هو الطاغية المتسلط ، وفي القرآن الكريم نقرأ في سورة الفجر : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، وواضح من هذه الآيات الكريمة الفرق والتمييز بين الأعمدة والأوتاد ، فالأوتاد مرتبطة بخيام نظام البداوة ، وأظهرت الحفريات الأثرية والمسح الشامل لشبه جزيرة سيناء وبرهنت أنها لم تعرف حوادث ما عرف بالتيه ، هذا ولم يفصل سيناء عن مصر أي بحر (قبل حفر

قناة السويس) وشكلت سيناء بين بلاد الشام ومصر جسراً للمواصلات، وهذا الجسر لم تتوقف عليه الحركة قط بين البلدين، علماً بأن لم يكتشف أي ملك مصري غرق في البحر، وملك مصر لم يسكن الخيام، ولم يكن شيخ عشيرة يستنفر أتباعه ليقوم بمطاردة مفاجئة وسريعة.

وما قيل عن عبودية اليهود في مصر، وتسخيرهم في بناء الأهرامات محض اختلاق، لأن الأهرامات بنيت في حوالي / 2500 ق. م/ وتم الكشف عن مقابر الذين أسهموا في بناء هذه المقابر العملاقة، فتبين أنهم من أهل مصر، علماً بأن اليهود حملوا دوماً البغضاء لمصر، ودأبوا في العصر الحديث على التشهير بها وبتاريخها المجيد، بأعمال التبشير، وبالأفلام السينمائية، وظلوا يضغطون على حكامها حتى ورطوها في كامب ديفيد، مما ألحق أضراراً بها وبالأمة العربية لا يمكن تقديرها.

ومجدداً بالنسبة لسيناء قد يقول قائل: وماذا عما ورد في سورة التين قوله جل وعلا: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾؟ نقول: قد يكون المقصود هنا جبل شبه جزيرة سيناء أو جبل القديسة كاترين، وهذا الجبل مقدس لدى النصارى وليس لدى اليهود، والقديسة كاترين مصرية لها حكاية طويلة في الآداب اللاهوتية المسيحية، ومرة أخرى نواجه سؤالاً آخر حول المكان الذي هرب إليه النبي موسى، وحول مدين النبي شعيب، فالإشارة التي وردت في القرآن الكريم ذكرت اسم مكان اسمه طُوى، وأن موسى عليه السلام مرّ بهذا المكان أثناء سفره، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (سورة طه ـ الآية: 12)، وقد تناول هذا الموضوع ياقوت الحموي في معجم البلدان، فبين اختلاف الآراء حول الموضوع. وروى بأن من معاني «بالواد المقدس طوى»: «أي طوي مرتين، أي قدس.. وثنيت فيه البركة والتقديس مرتين» وأضاف بأن: «ذي طُوى ـ بالضم أيضاً ـ موضع عند مكة»، ومثل هذا هناك عدم اتفاق حول تحديد مكان مدين، حيث عاش النبي شعيب، الذي اسمه عند اليهود «ثيرو»، علماً بأن بعض الدراسات الحديثة الموجهة من قبل إسرائيل والصهيونية ذهبت إلى القول الآن، بأن بلاد مدين هي منطقة تبوك، وأن جبل موسى أو حوريب هو جبل اللوز هناك، وأن عبور البحر كان عند خليج العقبة، ودوافع هذه التوجه محض

سياسية توسعية تستهدف السيطرة الإسرائيلية على خليج العقبة تماماً من جميع الجهات، وتثبيت ذريعة للتوسع المستقبلي في شبه جزيرة العرب.

هذا ودللت نتائج الحفريات الأثرية على عدم دخول هجرة بشرية مدمرة أو غير مدمرة إلى أرض كنعان منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، لذلك مال الكتاب الغربيون والصهاينة والذين يدورون بفلكهم إلى القول بأنه لم تكن هناك هجرة، بل تسرب سلمي، دون تحديد لمصدر هذا التسرب، لا بل عدم اتفاق على تحديد هوية المتسربين وتعدادهم، وبالفعل هذا كله اختراع، والاختراع في التاريخ زيف، فقد برهنت المكتشفات الأثرية على أن أريحا لم يلحقها التدمير نتيجة هجوم أو غير ذلك، ومثل هذا بقية مدن فلسطين التي كانت موجودة آنذاك.

وذهبت مرويات التوراة إلى أن موسى لم يدخل إلى فلسطين، بل وصل إلى منطقة مُآب في أردن اليوم، وصعد إلى قمة جبل نبو، من حيث شاهد «الأرض المقدسة» أو «أرض الميعاد» ثم توفي، ومن الصعود إلى قمة هذا الجبل في هذه الأيام لا يمكن مشاهدة أي شيء مما ورد ذكره في التوراة، ومن المؤكد أن موسى لم يصل إلى هذا الجبل، ولا إلى أية منطقة في بلاد الشام، وهم قالوا بأن موسى قد دفن فيه لقداسة هذا الجبل منذ القديم، وبالفعل كان هذا الجبل مقدساً، لذلك استعار كتاب التوراة اسمه، ذلك أن قمته وسفوحه، والوادي دونه، فيها مقابر كثيرة.

فقد جرت الحفريات الأثرية في هذا الجبل منذ عام 1933م، وتبين أنه استخدم بمثابة مقبرة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وأن أقدم أنواع القبور فيه هي قد عرفت باسم «دلمون Dolmens»، وهي منشآت حجرية كبيرة جداً، لها شكل مستدير، ولها فتحة من جهة الشرق، وكان بين ما تم العثور عليه في هذه القبور هو بعض الأدوات التي استخدمت في الحفر والبناء، وبعض الجرار، وإلى جانب مقابر الدلمون جرى اكتشاف مجموعة أخرى من القبور، يعود تاريخها إلى أكثر من ألفين قبل الميلاد، وأفادت هذه المكتشفات أن العرب القدماء، خاصة البداة منهم، اعتادوا على القدوم إلى جبل نبو، حيث توفر نبع غزير من الماء، مع بعض المراعي، فلقد كانوا يقدمون منذ أيام الربيع حاملين معهم أجساد موتاهم لإعادة دفنها، وكانت هذه عادة مورست في أجزاء أخرى من فلسطين، ومعلوم أن كتبة

التوراة لم يتحدثوا عن كيفية موت موسى، بل قاموا بسرقة العادة العربية الفلسطينية، وادعوا جبل نبو لأنفسهم، لأنه اتسم بالقداسة، وكان يضم عدداً من المقابر، ويرجح أنهم فعلوا هذا لدى إحدى مراحل إعادة النظر بنص التوراة في أيام المكابيين.

ومع أنني سوف أتطرق ثانية إلى قضية داود وابنه سليمان، أشير هنا إلى أن الحفريات الأثرية في القدس لم تظهر ولا أدنى إشارة إلى بناء هيكل سليمان، وأهم من هذا أن هذه المدينة ـ كبلدة أو مدينة ـ لم تكن موجودة قبل أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وارتبط قيام هذه البلدة مع تهديم حاضرة بيت عمري العربية[1]، واكتشاف نبع سلوان، ثم انهيار الدولة الآشورية، واسترداد مصر لقوتها، مع التبدلات التي رافقت ذلك في الاستراتيجيات والتسليح وفنون الحرب، وطرق التجارة، والقرب من شواطئ البحر المتوسط، وتصدي المصريين للتوسع الكلداني في فلسطين، هذا التوسع الذي هدد مصر، وأعاد إلى الذاكرة الاحتلال الآشوري لها، ولسوف أعالج مسألة السبي البابلي فيما بعد مع غيرها من المسائل قبل العصور الكلاسيكية، وبودي التنويه هنا أن كل واحدة من القضايا المتقدم ذكرها تحتاج إلى أبحاث مستفيضة، وهذا من غير الممكن أن يقوم به فرد، بل يحتاج إلى مؤسسات بحث مختصة، وقد آن الأوان أن يكون في كل جامعة في المشرق والمغرب العربي مركزاً للدراسات الإسرائيلية، وأعجب في الوقت نفسه من إقدام المؤسسات المالية والصناعية والتجارية في الغرب على تأسيس مراكز للبحث، ونحن لا نفعل ذلك، مع أن أمتنا هي أمة الأوقاف وإنشاء المدارس، والإنفاق على العلم والعلماء وتأسيس المكتبات!.

ومن القواعد المتوجب الالتزام بها في الأبحاث التاريخية الجادة، التمهيد بتقديم دراسة لأهم مصادر البحث، وأن تكون هذه الدراسة نقدية، ونظراً لخطورة موضوع تاريخ اليهود القديم، وفي الوقت نفسه لضيق المكان الآن، اضطررت إلى الاقتصار اليوم على الإقدام على دراسة بعض المصادر المتداولة، وأدع الدراسة الوافية إلى مناسبة أخرى، إنشاء الله تعالى ويسر.

---

(1) بهذه المملكة تتعلق الإشارة إلى آحاب ـ ومشاركته في معركة قرقر على العاصي ضمن التحالف الآرامي ضد الآشوريين.

ومصادر التاريخ القديم اليهودي كثيرة، تتصدرها ـ كما سلفت الإشارة ـ نتائج الحفريات الأثرية في القدس، وفي فلسطين كلها، مع جميع أنحاء بلاد الشام، والنقوش المصرية القديمة، ونصوص ونقوش بلاد الرافدين ولاسيما الآشورية، ولابد من التنبه أولاً إلى أن جميع نصوص النقوش والكتابات القديمة تحتاج إلى إعادة قراءة وضبط، لأن الزيف لحق قراءة معظم النصوص التي لها علاقة باليهود، وما برح الباحثون العرب يعتمدون ـ في الغالب ـ على قراءة غير العرب لهذه النصوص، مع أن العدد الكبير من أوائل الأثريين كانوا إما من رجال اللاهوت، أو تحت تأثيرهم، وصار الأثريون ـ أو لنقل أكثريتهم ـ يعملون فيما بعد بتوجيه من الصهيونية، وما برح هدف الأجيال الأثرية الغربية، تثبيت ما ورد من أخبار في العهد القديم[1].

والذي عثر عليه في مصر كثير جداً، وسأقف فقط عند بعضه الأهم، وهو نصوص اللعنة، ونقش مرنتباح، ورسائل تل العمارنة:

ومن المقدر أن نصوص اللعنة تعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وقد كتبت هذه النصوص على آنية من الفخار، وبعض الدمى بالخط الهيراطيقي، ومثلت هذه الدمى أسرى موثوقين، كشف عنها في سقارة وطيبة، وهي محفوظة في كثير من المتاحف في أنحاء العالم، ويوجد منها نماذج في متحف القاهرة، والأسماء التي وردت في هذه النصوص: مصرية، ونوبية، وسورية (آسيوية)، ويقول أحد النصوص بعد ذكره لاسم الشخص الملعون وأسرته مع «حلفائهم والمشتركين معهم، الذين يثورون أو يتآمرون، أو

---

(1) انظر:

The Ancient near East, Edited by James. B. Pritchord, Princeton 1958....., Rewritting the Bible by Amy Doc Kser marcus, London 2000, The Emergence of yehud in The Persian period, by charles E. cartor, sheffield 1999, the Archaeology & Ancient Esrael, Edited by Amnon ben-tor, Palestine 1992, the Hyksos, Edited by D.oren, Philadelphia 1997, Concise Atlas of the bible, San Francisco 1991, the Gold of Exidus, by Heward Blum, London 1998, David's Jerusalem, Fiction or Reality, Biblical Archarology Review, by Margreet steiner, July - August 1998.

والأبحاث 1 ـ 5 في أبحاث مؤتمر تاريخ القدس المنعقد في جامعة القاهرة 1998. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي: تأليف الياس شوفاني، ط، بيروت 1996. الفصل الثاني والثالث من الموسوعة الفلسطينية ـ القسم الثاني، ج2، ص 102 ـ 107، ج5، ص 797 ـ 800، الموسوعة الفلسطينية ـ القسم الأول، ج3، ص 508 ـ 511.

يقومون بالحرب، أو يفكرون في الثورة في جميع أنحاء البلاد» أو «جميع الرجال، وجميع الناس، وجميع الشعب، وجميع الذكور، وجميع الخصيان، وجميع الإناث، وجميع الذين يحاولون الثورة أو التآمر، ويفكرون بالحرب. . . وكل كلمة شر، وكل مقالة سوء، وكل مؤامرة».

وبعد كتابة الأسماء والمطالب، كان المصريون القدماء يكسرون هذه القطع الفخارية، وكأنهم كانوا يعتقدون أنه يمكن بهذه الواسطة إحباط أي عمل عدواني منوي ضد مصر، ورواسب هذه العادة ما تزال تمارس حتى الآن في مصر وبلاد الشام، وكأن لها مثل فعل السحر وتأثيره، وذلك مع الاعتقاد بأن الحرف هو كائن حي، ومن الأسماء السورية الآسيوية التي وردت في نصوص اللعنة: بيبلوس (جبيل) وعسقلان، وأوزو - أمام صور - وأُشام م.

وأقدم الباحثون الغربيون فوراً على القول بأن «أُشام م» هي «أورشليم» وفي هذا تدليس مكشوف، لأن المعطيات الأثرية بينت أن مدينة القدس لم تكن قد تأسست بعد، لأنها تأسست في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وهي قد حملت اسم «أورشليم» بعد ليس أقل من ألف وخمسمائة سنة من تاريخ نصوص اللعنة، وطبعاً من الواضح أن الذي قصد بـ «أُشام م» هو بلاد الشام، والتي غزيت مصر دوماً من خلالها، متذكرين أن تاريخ نصوص اللعنة يتزامن مع بدايات ظهور الهكسوس في مصر[1].

أما نقش مرنتباح (1224 - 1214 ق. م) فقد كتب على صخرة سوداء، وهو يتكون من ثمانية وعشرين سطراً، تحدث فيه هذا الملك عن انتصاراته وإنجازاته ضد الليبيين، ثم على بعض مدن فلسطين، حيث قال في السطر السادس والعشرين: «وانبطح كل الزعماء طالبين السلام، ولم يعد أحد يرفع رأسه من بين التسعة، وأمسكت التحنو، وخاتي

---

(1) القدس الخالدة في الوثائق المصرية القديمة والأكدية، والكتاب المقدس للأستاذ الدكتور عبد الحميد أحمد زايد، في بحوث مصادر تاريخ القدس ج1، ص56 - 58. مدينة القدس في النصوص المصرية القديمة خلال عصر الدولة الحديثة، للدكتورة فايزة محمود صقر، في الكتاب نفسه ج1، ص155 - 158، هذا وكانت هناك مدينة على الفرات في الجانب العراقي في عصر ماري كان اسمها «أورشومو».

هدأت، وأصيبت كنعان بكل أذى، واستسلمت عسقلون وأخذت جزر، وينعم أصبح كأن لم تكن، «ويزريل» أقفر ولم يعد له بذور، وخارو أصبحت أرملة».

ولدى التمعن في هذا النص، نجد أن الذين جاء ذكرهم في الترجمة هم ثمانية، وليسوا تسعة، وهؤلاء الثمانية هم: «تحنو 1، وخاتي 2، وكنعان 3، وعسقلون 4، وجزر 5، وينعم 6، ويزريل 7، وخارو 8، فأين الاسم التاسع؟.

وقبل طرح هذا السؤال النقدي، يلاحظ صدور دراسات كثيرة، احتارت كيف تتعامل مع الاسم «يزريل» فكلها استسلم أن المعنى هو «إسرائيل» وكثرت الاجتهادات والتفسيرات، لكن قبل الغرق في بحار التزييف أعدنا النظر بقراءة النص، فتبين أن تزييفاً لحق بالقراءة، ودمج هذا التزييف بين الاسمين السابع والثامن، وبذلك باتت الأسماء التسعة هي: «تحنو 1، وخاتي 2، وكنعان 3، ويسقراني 4، وجزر 5، وينعم 6، ويازير 7، ويار 8، وخال 9» هذا ومن المعتقد أن «يازير» هي «يازور» أي «بيت الزور» على بعد 6 كم إلى الشرق من يافا، أما جزر فتل يقع على بعد ثمانية كم مَن الجنوب الشرقي من الرملة[1]، ومن المحتمل أن «يار» هي يارين في جنوب لبنان.

وكان من قبل قد ذهب عدد من الباحثين إلى القول بأن رعمسيس الثاني والدمرنتباح هو «فرعون الخروج» أما الآن فبناء على القراءة المزيفة صار مرنبتاح هو «فرعون الخروج» وبشكل ملطف صار المقصود بـ «يزريل» سهل يسيراو، الذي صار يعرف فيما بعد باسم «سهل سدرالون» وبعد الإسلام «سهل أو مرج ابن عامر».

ونلتفت الآن إلى رسائل تل العمارنة:

في عام 1887م، كانت فلاحة مصرية تحرث قطعة أرض في خرائب «تل العمارنة»، عاصمة الملك أخناتون أي أمنحوتب الرابع (حوالي 1379 ـ 1362 ق.م)، الواقعة على دلتا النيل، فعثرت على لوح طيني مجفف عليه كتابات بلغة غريبة، فعرضته على أحد السماسرة، فتبين أنه مكتوب باللغة الأكادية (الكنعانية)، وبادر المهتمون بالآثار،

---

(1) معجم بلدان فلسطين لمحمد محمد شراب، ط. دمشق، 1987، انظر مادتي «يازور، وجزر»، وجزر هي الآن «تل أبو شوشة»، ومن أجل بقية الأماكن، انظر الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج2، ص99 ـ 102.

وأخذوا يبحثون، فبلغ عدد ما عثروا عليه ثلاثمائة وسبعة وسبعين لوحاً، فيها رسائل من بلاد الشام، نصفها تقريباً من فلسطين، وجلها أرسل إلى أخناتون، وتحتوي الرسائل على تقارير عن أوضاع فلسطين وعن صراعات بين ملوك محليين، وأسماء هؤلاء الملوك كلها عربية من ذلك: عبدو هبه، ولبايو (اللبوي)، ومليكو، وايلمكو، وكان هؤلاء بالواقع حكاماً صغاراً، تذللوا كثيراً في رسائلهم إلى الملك المصري، وشكوا إليه من الصراعات وبعض الاضطرابات الأمنية، وطلبوا بعض المساعدات العسكرية، مثل عدد قليل من النبّالة، وتحتوي النصوص إشارات إلى مجموعة بدوية كان اسمها «العفيرو» وأخرى أعرابية كان اسمها «شاسو».

وقرأ أوائل رجال الاستشراق اسم «عبدو هبه» «عبدي خيبا» و«العفيرو» «الخبيرو»، وأرادوا من وراء ذلك القول بأن «العفيرو» هم «العبرانيين»، وهنا لا ننكر أنه وجدت جماعة كان اسمها «الخبيرو»، لكن لابد من التمييز بين «الخبيرو» و«العفيرو» زمنياً وجغرافياً، فالخبير ورد ذكرهم في رسائل من ماري على الفرات (1730 ـ 1700 ق.م)، وذلك نسبة إلى الخابور[1]، أما العفيرو فهم بداة فلسطين، وفي العربية: التراب هو العفر «وعافره: صارعه... والعفرة غبرة في حمرة... والعفرة: المختلطون من الناس وعفرة الحرب والشر: شدتها... ورجل عفر، وعفرية، وعفراه... أي خبيث منكر... ومعافر: قبيلة من اليمن... والعفر: السهام[2]»، ويقابل كلمة «شاس» في عربية القرآن الكريم «جاس»، وفي سورة الإسراء الآية الخامسة: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ يضاف إلى هذا أن معنى شاسو باللغة الهيروغليفية «الأعرابي»، والمتتبع لتاريخ فلسطين عبر العصور يجد أنه كان فيها بالإضافة إلى سكان المدن والأرياف، دوماً بداة، وأعراب، وهذا موثق في العصر الفاطمي، وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ لدى وصفه لعبوره من مصر إلى الشام، وفي أواخر القرن الخامس عشر، في رحلة فيلكس فابري[3].

---

(1) (العفيرو) 269 ـ 176 (الخبيرو) 262 ـ The Ancient Easr, Vol I, pp261.

(2) المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد، ج2. ط بغداد 1978 (مادة عفر).

(3) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية للدكتور سهيل زكار، ج12، ص 144 ـ 145، ج43، ص1259 ـ 1292.

وبعد رسائل تل العمارنة استمر ذكر «العفيرو» يرد في الكتابات المصرية، من ذلك نقوش معبد هابو، التي تصور انتصار رعمسيس الثالث (1188 ـ 1157 ق. م) على شعوب البحر (فرستي ـ فلستي) وفي بردية هاريس، أهدى رعمسيس هذا نفسه عدداً من «العفيرو» إلى معبد الإله رع في عين شمس، كما استخدم ابنه رعمسيس الرابع (1157 ـ 1151 ق. م) ثمانمائة من «العفيرو» في قطع الأحجار في وادي الحمامات[1].

وحاولت بعض البحوث الالتفافية أن تجدد القول بأن هذه الإشارات تعني دخول العبرانيين إلى مصر حسبما ورد في العهد القديم، كما أن القرآن الكريم في إشارته إلى كل من يوسف، وموسى عليهما السلام، ذكر مصر خمس مرات[2]، وأن حاكمها عرف بفرعون، ومع أنني سأقف مجدداً عند تدوين العهد القديم وتقويم مواده الإخبارية، أوضح بداية أن أرض الكنانة كان اسمها في العصور القديمة «كمة ـ كميت» أي الأرض السمراء، وما من واحد من ملوكها حمل لقب فرعون[3]، وظلت أرض الكنانة تحمل اسمها هذا حتى ما بعد عصر الاسكندر المقدوني في القرن الرابع ق. م، بدليل نقش جبل رم (2) الواقع إلى الشمال من خليج العقبة، وقد كتب هذا النقش بحرف الجزم (القرآني) والمسند، والهيروغليفية، وجاء فيه: «قاد علي جيشه، وانتهى بأرض ترضى لكلب، جيشه عدا إلى الكمة كوم رع رب».

ولعل أرض الكنانة كسبت اسم «مصر» على أيدي القوى المشرقية منذ العصر الآشوري، أو قبيل العصر الإخميني، الذي كانت لغته الرسمية هي اللغة الآرامية، فبالأكادية «مصر» تعني: التخم، ومعناها في الآرامية: «المجرى»، ومازلنا نستخدم كلمة «مصران» أكثر من كلمة أمعاء، وفي النصوص الآشورية وردت كلمة «مسري، مسرو»

---

(1) بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، ج1، ص170 ـ 173.

(2) انظر سورة يونس الآية 87، وسورة يوسف الآيتان: 21، 99، وسورة الزخرف الآية: 51، وسورة البقرة: الآية 61.

(3) مرفوض التأويل اليهودي أن كلمة فرعون هي تصحيف لكلمة «باراعون» أي صاحب البيت الكبير، وانظر أيضاً مادة «كميت» في كتابي «المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم»، ط. دمشق 1997.

لتعني مجرى الفرات كله أو بعضه، ويقودنا هذا إلى المعنى القرآني حيث جاء في سورة البقرة (61) قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، وهنا إذا افترضنا أن الخروج كان من أرض الكنانة، فهل من المعقول أن يطلب منهم موسى عليه السلام العودة إليها، ثم كيف سيكون هنالك انشقاق للبحر مرة ثانية، ومجدداً أذكر ثانية أنه من المعروف جغرافياً أنه لا يوجد بحر يفصل بين مصر وشبه جزيرة سيناء، وأن الصهاينة قاموا أثناء احتلالهم لشبه جزيرة سيناء بالتفتيش في كل مكان، فلم يجدوا أي دليل على صحة حكاية الخروج حسبما وردت في العهد القديم، يضاف إلى هذا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي بيّن في معجم العين (مادة مصر): «وقوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ من الأمصار ولذلك نونه، ولو أراد مصر الكورة بعينها لما نون، لأن الاسم المؤنث في المعرفة لا يجري»، ومثل هذا ورد عند الطبري في تفسير قوله: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ من الأمصار لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار[1]».

ودفعت النتائج المحبطة لأعمال الكشف في شبه جزيرة سيناء، الصهاينة والذين يعملون بتوجيه منهم إلى القول بأن جبل الطور، أو بالحري جبل موسى لم يقع في سيناء بل في منطقة تبوك، وثارت زوبعة هذه الدراسات لبعض الوقت، لكنها انطفأت الآن أو كادت، وقد عرضت بثوب أكاديمي شبه جغرافي ولغوي مضلل، وعلى رأس الاعتراضات على هذه الدراسات أنها غير موثقة، وطرحت بأن التوراة كتاب مواده

---

(1) تفسير الطبري، د. دار الفكر، بيروت 1978، ج1، ص248. هذا وهناك رأي أن كلمة مصر هيروغليفية هي بالأصل مدر، ومعناها الإقليم الذي له حدود جغرافية واضحة، وأن الدال في مدر انقلبت إلى ص، وأن هذه التسمية ظهرت قبل الاحتلال الآشوري، لكن بعد اسم كمة، حيث حلت محله بالتدريج وعبر قرون طويلة.

معتمدة[1]، وهو ليس كذلك، وهو ليس تاريخ ولا حتى كتاب دين أو ميثولوجيا، إنه مواد جمعت من مشارب كثيرة ومتنوعة ومتباينة، وقد استغرقت عملية تدوين هذه المواد وتنقيحها والإضافة إليها حوالي الألف وخمسمائة سنة، وفرضية اللغة والتشابه بين الأسماء مغوية، تحتاج إلى توثيق وحسب المراحل التاريخية، أي مراحل الاستعارة من قبل الحاخامات عبر العصور، ولهذا أجمع العلماء على القول بأن كل فقرة من أسفار العهد القديم تحتاج إلى تحليل نقدي من أجل التيقن والإعادة إلى المصدر، والعصر، والمكان، والكاتب، مع الاهتمام بالمناخ والتضاريس والزراعة، لاسيما وأن زراعة الزيتون غير موجودة في شبه جزيرة العرب، وكذلك الحياة الاجتماعية وغير ذلك كثير، ووراء هذه الدراسات هدف خطير، استهدف جعل مواد العهد القديم المعيار الذي تقاس عليه معلومات القرآن الكريم وكذلك مرويات تاريخ العرب قبل الإسلام والمكتشفات الأثرية.

ولدى القول بأن منطقة خليج العقبة كانت المنطقة التي انشق فيها البحر، ليتم العبور إلى بلاد مدين أي تبوك الحالية، لأن شبه جزيرة سيناء كانت دوماً بيد القوات المصرية من أجل المواصلات مع بلاد الشام، ومناجم النحاس واللازورد (الفيروز)، هذا القول صحيح يرافقه سؤال هو: كيف تسنى للخارجين الفارين الوصول من مصر إلى منطقة خليج العقبة، والمسالح المصرية منتشرة في كل مكان من سيناء، ن وبعد هذا كله لماذا أغفل المصريون القدماء تدوين أخبار هذه الأحداث الجسام؟!.

ويبدو أنه في الوقت الذي اكتسبت فيه أرض الكنانة اسماً آرامياً جديداً، نالت أيضاً تسمية إغريقية، انتقلت فيما بعد إلى اللغات الغربية، وأعني بذلك كلمة «ايجبت Egypt» وبات أهلها يعرفون بالتالي باسم «قبط»، وأصل هذه التسمية هو أن المصريين القدماء

---

(1) من ذلك: «التوراة جاءت من جزيرة العرب» لكمال صليبي، و«خفايا التوراة» له، و«حول أطروحات كمال الصليبي» لفرج الله صالح ديب، و«التوراة اليمانية أو الصنعانية» له، و«جغرافية التوراة» لزيادة منى، و«جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة» لأحمد عيد، انظر أيضاً:
The Gold of Exodas by Howard Blam, London 1998.
وقف عند خرائط وصور هذا الكتاب في مطلعه وما بين ص177 ـ 178، وهذا ما كان قد تبناه جيمس برتشرد حين أشرف قبل وفاته عام (1996) على:
Concies Atlas of The Bidle, San Francisco, 1997.

أطلقوا اسم «حكفكت» أو «حكفت» على العاصمة «منوفر» التي دعاها الإغريق باسم «ممفيس»[1]، وقد حور الإغريق اسم «حكفت» إلى ايجبت، ولأنهم كتبوا دوماً حرف «الحاء» «ألفاً» والفاء «باء»، ومع الأيام أصبحت التسمية الجديدة معتمدة منذ العصور الكلاسيكية، حيث امتد الحكم الكلاسيكي لمصر لمدة حوالي الألف عام.

ويشكل ما تقدم نماذج حول مكانة المصادر المصرية القديمة، وأن الحاجة ملحة لنقل النصوص القديمة لتاريخنا إلى العربية مباشرة، وليس عبر لغة غريبة وسيطة، وينطبق هذا أيضاً على المصادر الرافدية من بابلية وآشورية، علماً بأن المصادر الرافدية ليست بالقدم نفسه مثل المصادر المصرية، هذا وإننا ننتظر ظهور الكثير المهم من المواد السورية القديمة من قطنة وإيبلا، وأقدم المصادر البابلية وأهمها ما جاء من الدولة الآشورية ثم من دولة بابل الثانية، فمن المعلوم أن العراق بلد قاري، لذلك سعى حكام العراق نحو السيطرة على بلاد الشام والوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وقاد هذا إلى أعمال توسع أكبر، ويضاف إلى هذا إمكانات بلاد الشام من جميع النواحي وتوفر أكبر مناجم للنحاس ولتصنيع البرونز في العالم القديم في فيفان في أردن اليوم.

ومن غير الممكن الحديث عن علاقات لدولة بابل الأولى مع يهود في القدس أو سواها، لأن اصطلاح يهود لم يكن قد ظهر بعد، ومدينة القدس لم تكن قد تأسست بعد، بل ربما كان هناك على مقربة منها محرس عسكري صغير جداً، أما في العصر الآشوري فمن الممكن الحديث عن سياسة آشورية معتمدة نحو فلسطين منذ أيام «سلمان نصر»، ومع ذلك لم يرد ذكر للقدس طبعاً من دون يهود، إلا مرة واحدة فقط هي في نص يعود إلى أيام الملك سنحريب (704 ـ 681 ق.م)، وفي هذا النص تناقضات أكبر مما ورد في النصوص الآشورية الأخرى، حول اسم ملك القدس آنذاك، علماً بأن النصوص الآشورية قد اتسمت دوماً بالمبالغة بالمعلومات التي حوتها، وقد استمرت دولة آشور بالوجود حتى عام 612 ق.م حيث سقطت لدولة بابل الثانية ـ الكلدانية ـ، والمهم بالنسبة لموضوعنا بين ملوك الكلدانيين هو نبوخذ نصر الثاني (605 ـ 562 ق.م) والنصوص التي وصلتنا عن حملاته إلى سورية، وطبعاً تعزو النصوص التوراتية إليه ما يعرف باسم «السبي البابلي».

---

(1) أناشيد البعل لحسني حداد وسليم مجاعص ـ ط. بيروت 1995، ص42.

ولم تعمر الدولة الكلدانية طويلاً بعد نبوخذ نصر، وسقطت بابل عام 538 ق.م إلى الملك الفارسي قورش، حيث سلمه إياها كهنة مردوخ، وفي أيام الملك قمبيز بعد قورش احتل الفرس بلاد الشام، وكذلك مصر، كما أن جيوشهم شرعت منذ ذلك الوقت بالتوغل في آسية الصغرى وصولاً حتى بلاد الإغريق.

وقبل الاستطراد بالحديث عن الحقبة الفارسية أعود إلى حكاية السبي البابلي، فقد تحدث الملك نبوخذ نصر عن حملاته، وأهمها الحملة التي قام به في السنة السابعة من حكمه حيث جاء في النص الذي تحدث عنها: «السنة السابعة: شهر كسيليمو (كانون أول) حرك ملك أكاد جيشه إلى أرض حتي Hatti، وحاصر مدينة ياحودو Iaahudu، واستولى على المدينة في اليوم الثاني من شهر آذارو، وعين فيها ملكاً حسبما ارتضاه، واستولى على غنائم ثقيلة منها، وجلبها إلى بابل»[1]، وطبعاً لم يكن اسم القدس في يوم من الأيام ياحودو، والدراسة المتأنية لنصوص نبوخذ نصر تظهر أنه لم يستولِ على القدس، ولم يدخل فلسطين إلاّ مرة واحدة، جرى صده فيها من قبل الجيوش المصرية، ويقيناً لم يكن هناك سبي ليهود من القدس إلى بابل، لأن اليهود لم يكونوا قد ظهروا على مسرح التاريخ، يضاف إلى هذا أن الحفريات الأثرية أظهرت أن القدس كانت مدينة مزدهرة عامرة، في التاريخ الذي قيل بأنها تعرضت فيه للخراب على أيدي جيوش نبوخذ نصر، لكن هذه المدينة أخذت تتراجع لتصبح شبه قرية، وكان ذلك بعد أكثر من نصف قرن، أيام الحكم الاخميني، التي قيل بأن فيها أعيد بناء المدينة حسبما جاء في سفري عزرا ونحميا، وتم فيها أيضاً عودة المنفيين[2].

ولقد أظهرت نتائج الحفريات الأثرية التي جرت في بابل بأنه لم يكن في هذه الحاضرة العريقة قبل احتلالها من قبل قورش غير الذين عبدوا الإله «مردوخ» وبقيت هكذا حتى تاريخ تهديمها، ومعروف أنه في البلاط الاخميني ومن قبل عزرا الكاتب الذي كان

---

(1) The Ancient Neasr East, Vol I, pp199 – 205, The Third Edition of the Same book, princeton 1969, pp 307 – 308. Ancient Records of Assyria and Babylonis, by james Breasted, Chicago, 1926, Vol 2, pp 119 – 121, 143.

(2) Rewriting the Bible, pp156 – 172.

القدس في التاريخ تأليف د. سهيل زكار، ج1. ط. بيروت 2002، ص 45 ـ 55.

يعمل به جرت المحاولة الأولى لتدوين أسفار التوراة، وأن الإخمينيين أسكنوا في كل من مصر وفلسطين حاميات عسكرية أحضروها من المشرق، وسكنت الحامية العسكرية الاخمينية في مصر في جزيرة الفيلة، وشهرت بعبادة الإله يهوه، وهو إله للزوابع، ويرجح هنا أن الحامية التي جلبت إلى فلسطين سكنت في القدس ومن حولها، وكانت على اتصال بحامية مصر، وورد اسم المنطقة الإدارية التي سكنت فيها في البداية أحياناً باسم يه YH ثم على شكل Yhwd، أو Yhw، أو Yhd، أو Yodh-he أو Yhwd-phw, Yhd. ووردت هذه الصيغ على قطع نقود أو بقايا قطع من الفخار، لأن الفخار كان يختم باسم المنطقة الإدارية التي كان يصنع بها لأسباب إدارية وضرائبية، ومع الأيام عرفت منطقة هذه الفئة باسم «يهود»، وأخذ سكانها يتميزون بديانة ثنوية نبعت من الزرادشتية وامتزجت مع بقايا تقاليد عرفت باسم الموسوية، وما تزال هذه القضية قيد البحث، وبحاجة إلى المزيد من التعميق، لكن لسوء الحظ إن مصادر الحقبة الاخمينية التي استمرت حوالي القرنين قليلة جداً، وسكنى هذه الطائفة في فلسطين صبغت بثوب ديني أسطوري، فكانت وراء ما ورد في سفري عزرا ونحميا، وحكاية العودة من السبي، وإعادة بناء الهيكل المزعوم وأسوار القدس، والمهم هنا أن أعمال الكشف الأثري أفادت أن مساحة هذه المقاطعة كانت / 651 دونم/ ولم يتجاوز عدد سكانها / 300 . 16/ إنسان، وأن بعض هذه المساحة فقط، كان مسكوناً، لكن 65٪ منها لم يكن يتجاوز كل وحدة سكنية منها مساحة خمسة دونمات، وأن موقعين فقط بلغت مساحة كل واحد منهما / 20/ دونماً، وأن سكان القدس كان تعدادهم ما بين / 1200/ إلى / 1500/ إنسان[1].

وبودي لو أتيح لي الوقت الآن للحديث عن تاريخ الديانة اليهودية وعن تاريخ أسفار العهد القديم وعن محتوياته وكذلك عن التلمود، ولعل ذلك يكون في مناسبة أخرى إن شاء الله.

والمهم أننا عرفنا الآن أصل منشأ كلمة يهود ويهودية، ومن ثم باتت جميع الآراء الماضية والنظريات ملكاً للتاريخ، وألتفت لتقديم عرض موجز لتاريخ القدس، والبحث

---

(1) The Emergence of Yehud in the persian period, pp 222-246, 253-264, 283-394.

أولاً حول اسم هذه المدينة الذي عرفت به أولاً، وسبب ذلك لأن الكتابات الإخبارية اليهودية تمركزت حول القدس، وأرادت جعلها محور تاريخها.

يشهد الدارس لموقع القدس وتطورها عبر العصور، تشابهاً منقطع النظير مع مكة المكرمة، فالمدينتان قامتا في موقعين جبليين، وارتبط تطورهما بالقداسة والتجارة، وهما معا عانتا من مشاكل قلة المياه، وأكثر من هذا مثلما اسم مكة أو بكة يعني نبع الماء، يرجح علمياً أن تسمية القدس من حيث الأصل ارتبطت بالماء.

وتقع القدس على خط طول 35 درجة و13 دقيقة شرقاً، وخط عرض 31 درجة و52 دقيقة شمالاً، وترتفع نحو 750م عن سطح البحر المتوسط، ونحو 50 . 11م عن سطح البحر الميت، والقدس ذات موقع جغرافي مهم، لأن نشأتها جاءت على هضبة القدس والخليل، وفوق القمم الجبلية التي تمثل خط تقسيم المياه بين وادي الأردن والبحر المتوسط غرباً، وجعل هذا من اليسير عليها أن تتصل بجميع الجهات، وهي حلقة في سلسلة تمتد من الشمال إلى الجنوب، فوق القمم الجبلية للمرتفعات الفلسطينية، وترتبط بطرق رئيسية تخترق المرتفعات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وهناك طرق عرضية تقطع هذه الطرق الرئيسية، لتربط وادي الأردن بالساحل الفلسطيني، ومن بينها طريق القدس أريحا، وطريق القدس يافا، وتبعد القدس مسافة 22 كم عن البحر الميت، و52كم عن البحر المتوسط، وأطوال الطرق المعبدة التي تربط بين القدس وكل من العواصم العربية المجاورة هي التالية: القدس عمان 88كم، القدس دمشق 290كم، القدس بيروت 388كم، القدس القاهرة 528كم.

وترجع الأهمية لموقع القدس، إلى أنه يجمع بين مزية الانغلاق، وما يعطيه من حماية للمدينة، ومزية الانفتاح، وما يعطيه من إمكانية الاتصال بالمناطق والأقطار المجاورة، كما وترجع هذه الأهمية إلى مركزية موقع القدس بالنسبة إلى فلسطين والعالم الخارجي، وعلى هذا اختير موقع القدس بما يجمع من صفات الانغلاق والانفتاح.

وفي المجال العسكري، اكتسب موقع القدس الجغرافي أهمية خاصة نظراً للحماية الطبيعية التي تزيد في الدفاع عنه، وعندما كانت الحملات العسكرية تنجح في احتلال القدس، كان ذلك النجاح إيذاناً باحتلال سائر فلسطين والمناطق المجاورة لها . . . وكانت

نشأة النواة الأولى لمدينة القدس على تلال الضهور (الطور ـ تل أوفل) المطلة على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من المسجد الأقصى، وقد اختير هذا الموضع الدفاعي لتوفير أسباب الحماية والأمن لهذه المدينة الناشئة، وساعدت مياه عين أم الدرج في الجانب الشرقي من الضهور على توفير المياه للسكان، وأحاط بهذا الموقع وادي قدرون (جهنم) من الناحية الشرقية، وأحاط من الجهة الجنوبية وادي هنوم (الربابه) ووادي الزبل من الجهة الغربية: «وقد كونت هذه الأودية الثلاثة خطوطاً دفاعية طبيعية جعلت اقتحام القدس القديمة أمراً صعباً، إلاّ من الجهتين الشمالية والشمالية الغربية»، وبناء عليه استولت عليها جميع الجيوش عبر التاريخ ودخلتها من جهة الشمال.

«وهجرت النواة الأولى للمدينة بمرور الزمن، وحلت محلها نواة رئيسية تقوم على تلال أخرى غير تلال الضهور (الطور) مثل مرتفع ساحة الحرم (موريا) في الشرق، ومرتفع صهيون في الجنوب الغربي»، ومع الأيام دخلت هذه المرتفعات داخل أسوار المدينة، وكان ذلك على يدي الامبراطور الروماني ايليوس هدريانوس (117 ـ 138م)[1].

أما بالنسبة لاسم المدينة، فقد اعتمد الباحثون في هذا المقام على مواد العهد القديم، فقالوا بأن اسمها الأول كان «يبوس»، ثم صار اسمها «أورشليم» بصيغ متنوعة، ثم مدينة داود، وبعد ذلك ايلياء، وبعد الفتح الإسلامي بزمن عرفت اسم القدس، أو بيت المقدس، يضاف إلى هذا أن أسفار العهد القديم أطلقت عليها أسماء أخرى مثل: سالم، وهيروسوليما، وبيدر أرنان، وأريئيل، ومدينة قوية، وابنة صهيون، والمدينة الدموية، والمدينة المطلوبة غير المهجورة، ومدينة قوية، ومدينة الرب، والسيدة في البلدان، والعظيمة بين الأمم، ووادي الرؤيا، وسدوم، والبرج، وهاليا، والجزيرا Al-gariza، وأشار المسيحيون إليها أحياناً باسم «الضريح المقدس»، واللاتين باسم ييروسوليما[2].

ومع أن اسم يبوس اسم عربي شامي، ما زال معروفاً في أحواز دمشق (جديدة يابوس) من غير الممكن توثيق جميع هذه الأسماء التي وردت في أسفار العهد القديم،

---

(1) الموسوعة الفلسطينية ـ القسم العام ـ الطبعة الأولى 1984، الجزء الثالث، مادة «قدس».

(2) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية لسهيل زكار، ج42، ط. دمشق 2001، ص1015. الموسوعة الفلسطينية ـ المرجع نفسه، والمادة ذاتها.

والذي يمكن اعتماده فقط أولاً اسم «القدس» ثم «إيلياء» رسمياً فقط لبعض الوقت، والقاعدة التي اعتمدت في بلاد الشام حتى قدوم الاسكندر المقدوني، في إطلاق الأسماء على الأماكن، قد ارتبطت بطبيعة المكان جغرافياً أو طبيعياً، أو بوجود مكان مقدس (بيت) أو بمعركة من المعارك، ولم يستخدم الشاميون السابقة «أور» في أي مكان من بلادهم، واقتصر استخدام هذه السابقة على بلاد الرافدين، ومن هذا المنطلق من المرجح أن اسم «أورشليم» قد أطلق على المدينة المقدسة في أيام الحكم الاخميني في المائة الرابعة قبل الميلاد، وذلك مع ظهور مقاطعة «يهود» واسم أورشليم اسم رافدي بابلي، ظل رائجاً حتى مطلع العصر العباسي، حيث أنه عندما بنى أبو جعفر المنصور مدينته المدورة (بغداد) أطلق عليها اسم «دار السلام» أي أورشليم.

والاسم «القدس» هو الذي يمكن توثيقه لغوياً، وجغرافياً، وتاريخياً، وهذا الاسم مرتبط بالماء من حيث الجر، ومن حيث التخزين، وكما سلفت وأشرت إلى التشابه ما بين مكة المكرمة والقدس، فهذا وضح لنا من حيث التشابه بالموقع الجبلي، وكذلك أصل الاسم ومعناه، فقد أشار القرآن الكريم إلى مكة باسم «بكة» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ ﴾ [آل عمران ـ الآية: 96] والإشارة إلى بكة هي إشارة إلى بئر زمزم، ففي لبنان هناك بعلبك، وفي سورية ومصر اسم الفم «بق» ويقال للذي يطلب منه الكلام: «بق الكلمة»، وبقين، نبع مشهور في ريف دمشق، يشرب الناس مياهه المعبأة في قوارير، وما برح العرب في كل مكان يصف كل واحد منهم الماء في حالة الفوران والغليان «الماء يقبق».

ومثل هذا كلمة «قدس» التي تضبط بـ: «قادس ـ قادش وقدس» وفي سورية قدس أو قادس قرب حمص، واسم النبع الآن «عين التنور»، ونبع النهر الذي تشرب منه طرابلس الشام هو «قاديشا» وفي فلسطين «قادش برنيع» قرب بئر السبع، وإلى الشمال من صفد قرية اسمها «قدس»، وهناك «قادش» على الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة طبرية، بالقرب من سمخ[1]، وفي جنوب لبنان قرية اسمها «قدس»، وإلى جانب دمشق بلدة

(1) الموسوعة الفلسطينية ـ المرجع نفسه، مادة «قدس + قادش».

«قدسيا» التي سميت كذلك لجر الماء إليها من نبع العراد، وفي الأندلس مدينة عريقة كان اسمها «قادس» في كورة اشبيلية، ذكر ياقوت في معجم البلدان أن الماء كان يجلب إليها من نبع عذب في البحر، حيث بني فوقه «بناء محكم ووثق بالرصاص، والحجارة الصلبة» وسيق الماء من هناك إلى المدينة، وفي العراق القادسية التي وقعت قربها المعركة المشهورة وكذلك قديس، وكان أيضاً قرب دجيل بين حربي وسامراء قرية كبيرة اسمها قادسية[1].

وفي جنوب اليمن قدس، ويقال حتى الآن في سورية لدلاء الماء «قادوس»، وفي المغرب الأقصى، القادوس: مجرى الماء، وهناك قرب فاس «عين قادوس».

ونقرأ في لسان العرب لابن منظور: «القُدوس هو الطاهر المنزه عن العيوب، وقد تفتح القاف، وقدس هو الموضع المرتفع الذي يصلح للزراعة، وقَدَس بفتح القاف والدال ـ موضع بالشام من فتوح شرحبيل بن حسنة، والتقديس: التطهير والتبريك، وتقدس تطهر، ونقدس لك: نطهر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدسه، أي نطهر، ومن هذا قيل للسطل القَدَس، لأنه يتقدس منه، أي يتطهر، والقَدَس: السطل بلغة أهل الحجاز لأنه يتطهر فيه، والقُدس: «البركة»، وعلى هذا القدس بركة الماء، الماء الذي يستخدم للطهارة، ولقد كان من أهم ما اتسمت به مدينة القدس القديمة في العصور القديمة والوسيطة البرك التي كانت تجمع فيها مياه الأمطار، حتى ساد اعتقاد لدى المسيحيين أن مياه بركة الضأن[2]، وكانت من أكبر برك المدينة، كان ملاك يحرك مياهها، وعند تحركها أول من يغطس بها يشفى من كل داء.

وذكر هيرودوت (483 ـ 425 ق.م) في تاريخه القدس تحت اسم كاديتيس Cadytis، وأوضح أنها كانت بلدة سورية كبيرة على مقربة من «ماجدولوس» الذي هو مرج ابن عامر، أو بالحريّ تل المتسلم، ويوحي كلام هيرودوت أنها كانت تعرف بهذا الاسم من القديم[3]، وأنها مدينة فلسطينية، ذلك أن الجزء الجنوبي من سورية «الممتد

---

(1) معجم البلدان ـ مادة «قادس + قادسية»

(2) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية/ ج39، ص102 ـ 107.

(3) معجم بلدان فلسطين لمحمد شراب، ط. دمشق 1987، مادة «مجدو». هيرودوت يتحدث عن مصر للدكتور محمد صفر خفاجة، والدكتور أحمد بدوي، ط. القاهرة 1987، ص293.
Herodotiues, The Histories, London, 1965, pp199.

جنوباً إلى مصر كله يعرف باسم فلسطين»[1]، وكان هيرودوت حين تحدث عن التقسيمات الإدارية للامبراطورية الاخمينية، مع تبيان كميات الضرائب التي كانت تدفعها كل مقاطعة لهذه الامبراطورية، بين أن المنطقة العربية التي ضمن سيناء مع سورية الداخلية كانت معفاة من الجزية، وأن المنطقة الساحلية التي امتدت من السويدية حتى مصر شكلت مقاطعة إدارية ضمت «كل فينيقية وذلك الجزء من سورية الذي يعرف باسم فلسطين وقبرص»[2]، وفي هذا ما يؤكد أنه في المائة الخامسة قبل الميلاد لم تكن مقاطعة اليهودية قد ظهرت إلى الوجود.

ونقف مجدداً مع العرض التوراتي للأحداث، فقد ذهب هذا العرض إلى أن القدس قد تأسست حوالي عام / 3500/ ق.م، وأن سكانها المؤسسين لها كانوا العرب اليبوسيين، وأن ملكي صادق كان أول ملوك هذه المدينة، وهو سام بن نوح، وقد زاره إبراهيم الخليل عليه السلام، فباركه، أي استخلفه، واستخلف إبراهيم فيما بعد ابنه اسحق، وجاء من بعد اسحق ابنه يعقوب، الذي دخل مع أولاده إلى مصر الإقليم، إثر مجاعة، ولأن ابنه يوسف كان عزيز مصر، وبعد ردح من الزمن تكاثر عدد أبناء يعقوب، الذي صار اسمه الآن إسرائيل، ونتيجة لظلم المصريين، هاجر بنو إسرائيل من مصر بقيادة النبي موسى عليه السلام، وأنهم قطعوا البحر إلى شبه جزيرة سيناء حيث تاهوا فيها لمدة أربعين سنة، ثم دخلوا فلسطين بعد وفاة موسى عليه السلام بقيادة يوشع بن نون، وهدموا أريحا، وقاتلوا أهل فلسطين، حتى تمكن داود في حوالي سنة / 1000/ ق.م من الاستيلاء على القدس، فصارت مدينة داود، وبعد داود حكم ابنه سليمان الذي بنى في القدس الهيكل الأول، وبعد سليمان انقسمت مملكته إلى قسمين: مملكة إسرائيل في الشمال، وهي الأكبر، ومملكة يهوذا في الجنوب، وهي الأصغر، وأن حروباً قاسية نشبت بين المملكتين، وأن هذا أدى إلى انفصال جماعة السامرة، وفي الوقت نفسه تعرضت فلسطين لحملات مصرية، وأخرى أكادية، ثم آشورية، وبعد ذلك كلدانية كان آخرها حملة نبوخذ نصر، الذي استولى على القدس، وسبى سكانها وشتتهم، حتى جاء العصر الاخميني.

---

(1)Herodotuies, Ibol, p444.

(2)Herodotuies, Ibol, p214-215.

وهذا العرض، وإن كان يبعث ـ في أيامنا ـ السرور ـ في بدايته ـ بالنفس، هو ملفق ولا صحة له، يتعارض تماماً مع معطيات الآثار، كما أنه لا يتوافق مع ما ورد في القرآن الكريم، وهو قد بعث السرور في البداية على أساس أن العرب اليبوسيين هم الذين أسسوا المدينة، وهنا نرى أن يبوس سمه للمكان، وأن هذه السمة من المفترض قد منحت اسمها لسكانها، وأما الحديث عن ملكي صادق وإبراهيم الخليل فأسطوري كامل، اخترعه كتاب العهد القديم للقول بأن ملكي صادق قد عهد إلى إبراهيم، وأن إبراهيم قد أورث شرعيته إلى ابنه اسحق، وهكذا إلى يعقوب فالأسباط، وهذا أمر لا يمكن إثباته عن طريق الآثار، يضاف إلى هذا أن القرآن الكريم لم يذكر ملكي صادق، ولم يذكر أن إبراهيم الخليل قد قام بأية حروب، ثم إن الاتصالات بين العراق والحجاز ـ إذا قبلنا برواية أن إبراهيم كان أصلاً من العراق ـ لم تكن قد تتم عبر فلسطين، بل مباشرة، وأن اسماعيل كان هو الابن الأول لإبراهيم، وبإبراهيم واسماعيل الذبيح، ارتبط حدث إعادة بناء الكعبة في مكة المكرمة، ومع إعادة البناء هذه: الإيذان بالحج، وأما قضية اسم أم اسماعيل بأنه هاجر، فأمر سهل التفسير، لأن أهل اليمن يطلقون على القرية أو البلدة اسم «هجر»، وروى ياقوت أن «الهجر» بلغة حمير والعرب العاربة: القرية، فمنها هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان. . . .»[1]، فهاجر على هذا امرأة هجرية، والارتباط بمصر، هو ارتباط بمجرى ماء أو تخم، وفي جنوب شبه جزيرة العرب المياه وفيرة، وبها ارتبطت أماكن الاستقرار والتواصل المعاشي وسواه، وصورة إبراهيم الخليل عليه السلام في القرآن الكريم صورة الإنسان المتنقل غير المستقر، أي أنه كان أقرب إلى البداوة، ولذلك منطقي تسمية زوجته غير البدوية باسم هاجر، لأنها جاءت من «هجر» قامت على مجرى من مجاري المياه، وهذه أيضاً صورة بقيت مستمرة حتى أيام يعقوب، والخلاف بين أولاده، وقضية يوسف، ثم بعد ذلك في سيرة موسى عليه السلام بعد فراره، وقيامه بأعمال الرعي، وما دمنا مع موسى عليه السلام، إن بلد السحر قديماً هو بابل، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى

(1) معجم البلدان: مادة هجر.

ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾[1]، كما أن بلاد بابل هي بلاد الأبراج والزقورات، واستخدام الطوب المجفف بالشمس أو المشوي بالنار، في حين نجد أن آثار أرض الكنانة شاهدة على أنها بلاد الحجارة والبناء بها، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾[4].

والفرعون بالعربية هو الطاغية، وكان أبو جهل طاغية هذه الأمة، وشهرت بلاد بابل بطغاتها عبر التاريخ، ونعود إلى يعقوب وأبنائه لنتذكر انه كان من عادة البداة الاسترفاد في مواسم القحط من البلدان المجاورة، وشهرت هذه العادة عند بداة شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا يسترفدون من العراق في أيام القحط قبل الإسلام، ولدينا في الأدب العربي حكاية قوس حاجب، وهي من الشواهد المتأخرة، كما أن شط العرب شكل مجمعاً للبحرين، وعلى مقربة منه ما تزال هناك بقايا أقدم اتباع ديانة قديمة جداً، وأعني بهم الصابئة الذين يمتلكون تراثاً دينياً غنياً، يضاف إلى هذا أن الخليج العربي هو البحر الأحمر قديماً، وتتحدث كتب الأخبار العربية وكتب الأنساب عن عرب بائدة، وقد يكون بنو إسرائيل من العرب البائدة، لأنه جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة ـ الآية 102.

(2) سورة القصص ـ الآية: 38.

(3) سورة غافر ـ الآية: 23 ـ 24.

(4) سورة غافر ـ الآية: 36 ـ 37.

(5) سورة البقرة ـ الآية 133 ـ 134.

هذا ومقرر علمياً أنه لا علاقة بين بني إسرائيل - أي أولاد يعقوب - والذين سيعرفون باسم يهود فيما بعد، يقول الله جلت قدرته: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وحين ننتقل إلى مسألة كل من داود وسليمان، نجد أن صورة داود في القرآن الكريم تختلف عنها في العهد القديم، فهو في العهد القديم: فتى أفاق، مارس أعمال رعاية الأغنام، ثم شكل عصابة من حوله، وتشرد وتخفى في عدة أماكن، حتى قتل سيده، واستلم السلطة من بعده، وفي أيام سلطته كان بيته بؤرة دعارة، وكانت لذلك علاقته ببعض أولاده سيئة، ثم هو لم يكن نبياً، أما في القرآن فنجد صورته وحرفته مختلفة، وأنه كان نبياً، وهكذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[2]، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[3]، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾[4]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[5]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[6].

وعلى هذا كان النبي داود خليفة لله على الأرض، وكان يمارس أعمال القضاء، وقد آتاه الله زبوراً، وألان الله له الحديد، حيث عمل سابغات، وكان بالوقت نفسه عالماً، ولا بد لخليفة الله في الأرض من أن يكون حاكماً عظيم الشأن على دولة واسعة الآفاق، وهذا لا يتوافق مع تاريخ فلسطين، ثم إن القدس لم تكن قط عاصمة دولة كبيرة جداً وقوية إلى أقصى الحدود، ونبقى مع المسألة الفيصل وهي العمل بالحديد وصنع السوابغ،

---

(1) سورة البقرة - الآية 140 - 141.

(2) سورة النساء - الآية: 163.

(3) سورة الأنعام - الآية: 84.

(4) سورة المائدة - الآية: 78.

(5) سورة ص - الآية: 26.

(6) سورة سبأ - الآية: 10 - 11.

حيث من المقرر تاريخياً أن أول من استخدم الحديد في الأعمال العسكرية هم شعوب البحر، الذين اجتاحوا الشواطئ الشامية والمصرية، محدثين الدمار والحرائق، ومانحين لفلسطين ـ كما يعتقد الكثيرون ـ اسمها، فهم قد جاءوا من كريت، ومن بعض البلدان الأوربية التي امتلكت الحديد، وبذلك حققوا التفوق على الذين كانت أسلحتهم من البرونز، وكان ظهورهم في حوالي / 1200 ق.م/ فهل كان داود من شعوب البحر؟ طبعاً لا، لأن اسمه عربي، والله تعالى قد استخلفه وأنزل عليه الزبور، وبما أن الحديد لم يكن متوفراً في المشرق العربي، وأنه دوماً جرى استيراده من أوربا، أو من آسيا الصغرى، أو من الهند، علينا البحث عن دولة كبرى استخدمت الحديد على نطاق واسع، فحققت بذلك نجاحات عسكرية باهرة، وهذا ينطبق على الدولة الآشورية من بعد القرن الثامن قبل الميلاد، وطالما كان داود خليفة الله، وسيد دولة كبرى من نسل نوح، لابد أنه كان ملكاً آشورياً، ويدعم هذا اسم ابنه «سليمان» الذي هو اسم آشوري، والدولة العظمى التي حكمها سليمان لا تتطابق ملامحها إلا مع الدولة الآشورية، وصحيح أن الدراسات حول الدولة الآشورية كثيرة، نحن ما زلنا نجهل الكثير من أخبارها، لأن الذي كشف من آثار الماضي أقل مما يزال تحت الأرض، يضاف إلى هذا أنه لدى نقل الكثير من آثار آشور في القرن التاسع عشر نحو أوربا، أخذت طبعات العديد من النصوص المهمة جداً، وقد أتلفت أوراق هذه الطبعات في المتحف البريطاني لأن نصوصها تعارضت مع المواد العهد القديم[1]، وعلى هذا استعار كتاب العهد القديم من تاريخ آشور: داود، سليمان، والتمزقات التي عرفتها الدولة الآشورية، ومسخوا الجغرافيا، ودنسوا حرمة الصدق والحقيقة.

وقبل أن ندع النبي داود عليه السلام، أبقى مع صناعة السوابغ من الحديد، فالسابغة ثوب أو درع من زرد الحديد، يجره المقاتل على كعبيه طولاً، وتصنع السابغة بالعادة من حلق أو خواتم من الحديد تشبك مع بعضها[2]، وكانت صناعة السوابغ حتى في أوربا في العصور الوسطى تحتاج إلى مهارة عالية في فنون صناعة الحديد، وإلى نفقات

---

(1) ساغس (هنري) جبروت آشور الذي كان، ترجمة عربية، دمشق 1995، ص382 ـ 432.

(2) لسان العرب، مادة «سبغ».

كبيرة جداً، وإلى فرق من العمال البارعين، ذلك أن كل سابغة كانت تحتاج إلى عدد هائل من الحلق أو الخواتم، تصنع مفردة، ثم يجري شبكها مع بعضها، ولحمها مع بعضها بشكل متقن بواسطة النار الحامية والتطريق، واحتاج مثل هذا العمل إلى إمكانيات دولة كبرى مالياً وغير ذلك، وهذا ما لم يتوفر في فلسطين.

وأختم حديثي هنا بالمسألة التي تواجهنا فيما يتعلق بالنبي سليمان، وملكة سبأ، المشهورة باسم بلقيس، فالدارس لتاريخ الدولة الآشورية، ولنصوص الآشوريين الكثيرة، يلاحظ كثرة الإشارات فيها إلى القوى البدوية العربية، وإلى دويلات عربية كانت محكومة من قبل نساء[1]، وورد ذكر سبأ في القرآن الكريم مرتين، في المرة الأولى في سورة النمل (الآيات 19 ـ 44) حيث جلب طائر الهدهد خبراً إلى النبي سليمان عن ﴿ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ، وأرسل سليمان رسالة إلى سبأ قال لهم فيها: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾، وحاول السبأيون شراء رضاه بالمال فقال لرسوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ ، وفي النهاية قدمت ملكة سبأ عند سليمان، ولدى دخولها عليه حسبت أرض قاعة عرشه: ﴿ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ ، ومهم قولها: «أسلمت مع سليمان»، ولم يشر القرآن إلى حملها هدايا إلى سليمان أو سوى ذلك، في حين تحدثت أخبار العهد القديم عن هدايا متنوعة وثمينة حملتها إلى الملك سليمان، وإلى قيامة بإغوائها وإغواء وصيفتها، وإنجابها منه وكذلك وصيفتها، إلى غير ما ذلك.

والمتمعن بلهجة خطاب سليمان للسبأيين، ومن ثم مقارنتها بالنصوص الآشورية التي نشرت حتى الآن يجد تماثلاً، ولابد هنا من الوقوف عند قدرة طائر الهدهد على قطع المسافات، وإلى استخدام الزجاج الممرد، فلعل سبأ كانت على مقربة من آشور، فالقبائل العربية كانت منتشرة في مناطق الجزيرة وسواها، ومن جديد دعونا لمواجهة ذكر سبأ اليمن:

---

(1) Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol 2, pp130-208.

ففي سورة قرآنية حملت اسم سبأ (الآيات: 14 ـ 21)، ورد قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾.

وواضح هنا أن المقصود سبأ اليمن وسد مأرب، حيث تعرض لفيضان وتهديم، وكان ذلك قبل الاحتلال الحبشي لليمن، والفارق الزمني بين سبأ سليمان وسبأ اليمن قد يصل إلى ألف وثلاثمائة سنة، هذا ومسالة تشابه الأسماء في الوطن العربي مسألة معروفة عبر التاريخ.

ومن جديد أظهرت المكتشفات الأثرية والمدونات الكلاسيكية أن الفرس الأخمينيين قاموا باحتلال مصر بعد بلاد الشام ووضعوا في مصر حاميات عسكرية، شهر من بينها حامية تمركزت في جزيرة الفيلة (في النيل وراء سد أسوان، واسمها العربي أنس الوجود)، وتميزت هذه الحامية بعبادة الإله يهوه، وكانت لها علاقة بالحامية التي مركزها القدس وعاشت حول مدينة القدس، ولعل اسم يهود، ومن ثم تسمية المقاطعة بهذا الاسم اشتقت من اسم يهوه، فبين طبعات الأختام التي اكتشفت في هذه المقاطعة حمل بعضها اسم «يه» ثم بعضها «يهد»، وكان هذا قبل إدخال الأحرف الصوتية على الكتابة التي ستعرف باسم العبرية، وعندما تحرك هاتين الكلمتين تصبح الأولى «يهوه» والثانية «يهود»، وبالفعل ظهرت أختام فيما بعد حملت اسم «يهود»، كتب بعضها على سطرين «يه» ثم «أود».

وتقدم بي القول بأنه في أيام الحكم الإخميني كتب عزرا الكاتب أول مشروع مدون للتوراة، وكان عزرا يعمل كاتباً في البلاط الإخميني، وقد أرسل من قبل الإخمينيين إلى فلسطين، ومن المفيد قراءة سفره مع سفر معاصره نحميا بين أسفار العهد القديم، لاستخراج بعض الحقائق منه، فسكان مقاطعة يهود دانوا بأسس الزرادشتية، ثم مزجوها بعبادة يهوه، وبما عزاه عزرا إلى موسى عليه السلام، فكان بذلك بداية ظهور ما سيعرف باسم الديانة اليهودية، ونواجه هنا سؤالاً مهماً: من أين جاء عزرا بالمادة الأولية التي استقى منها أسفار التوراة الأولى؟ من الممكن القول بأنه وجدها بين محفوظات البلاد

الإخميني الذي عمل فيه كاتباً، ولكن من أين وصلت هذه المواد إلى بلاط الأخمينين؟ من المؤكد أنها لم تصل من بابل، ولا تتوفر الآن معلومات موثقة حول مصدر هذه المواد.

وانتهى حكم الدولة الإخمينية مع انتصار الاسكندر المقدوني عليها، ويرجح أن انهيار الامبراطورية الإخمينية أدى - فيما أداه - إلى انسحاب القوات الإخمينية والحاميات العسكرية وعودتها إلى المشرق، ومن المعروف أن حكم الاسكندر المقدوني لم يعمر طويلاً، فالاسكندر توفي مبكراً، وتوزعت امبراطوريته بين بعض أبرز قادته، ويهمنا نحن قيام الدولة السلوقية في بلاد الشام والمشرق، وقيام دولة البطالمة في مصر، ومن مزايا تاريخ هاتين الدولتين الصراع بينهما، وتمركز الصراع في فلسطين وحولها، وعندما كانت فلسطين يؤول حكمها إلى إحدى الدولتين، كانت الدولة الثانية تسعى إلى إثارة القلاقل لعدوتها، وكان من بين نتائج هذه الصراعات تزايد هجرة بعض بقايا عناصر الدولة الإخمينية، حيث أخذنا نسمع عن ظهور يهود في العراق، التي ظلت دوماً محكومة من قبل الفرس حتى أيام الفتوحات العربية الكبرى.

وبما أن القدس كانت مركز الحامية الإخمينية، أو لنقل مركز مقاطعة يهود، فقد استغلت العناصر اليهودية الاضطرابات لصالحها، إلى التوسع، كما أن سكان إقليم أدوم تحول بعضهم إلى اليهودية، وعلى ضوء هذا الواقع نفهم خلفيات حركة المكابيين التي روى أخبارها المؤرخ اليهودي يوسفيوس، كما وردت أخبار المكابيين في سفريهما الأول والثاني، من الأسفار المحذوفة (الأبوغرافية) للعهد القديم، ومن الممكن القول أن انهيار الامبراطورية الإخمينية كانت وراء الشتات الأول لليهود، أو بالحري الانتشار العالمي الأول.

وانتهى حكم السلوقيين بدخول بومبي إلى سورية عام 63 ق. م لصالح روما، ثم استيلاء روما بعد ذلك على مصر، ولمدة تقارب القرن لم تعرف فلسطين الاستقرار، كما أن اليهود أنفسهم عانوا من التمزقات وتجلى ذلك بقيام حركة الايسينيين، وانعزالهم على شاطئ البحر الميت، والحركات التي قادها زعماء يهود ادعى كل منهم أنه ملك يهود المنتظر (أو المسيح المنتظر)، ودمج اليهود تاريخ النبي عيسى عليه السلام وحركته ضمن هذه الحركات، وأهم من أسهم بذلك شاول اليهودي الذي صار فيما بعد يعرف باسم بولص الرسول.

ومنح الحكم الروماني يهود فلسطين فرصة النشاط التجاري والسفر في جميع أرجاء العالم الروماني، ولعل هذا أسهم في نشر اليهودية، التي أعيدت صياغتها في بابل، ففي بابل نشأت اليهودية الحاخامية، وفي هذه البلاد أكملت أعمال إخراج أسفار العهد القديم، وكذلك تدوين التلمود.

وظلت فلسطين مضطربة، وفي مطلع العقد الثاني من النصف الثاني للقرن الميلادي الأول قررت روما اجتثاث الداء، وخلال عقد من الزمان قام الرومان بقيادة تيتوس ثم ابنه فسبسيان بإبادة جل سكان فلسطين، وتدمير القدس وغيرها من الحواضر، وتصاحبت حركة التدمير بقرارات بحظر سكنى اليهود في فلسطين، وفي القدس بالتحديد، وعندما أعاد الامبراطور الروماني ايليوس هدريانوس بناء القدس، جدد هذا الحظر، ثم تجدد هذا الحظر أيضاً في مطلع القرن السابع الميلادي من قبل الامبراطور البيزنطي هرقل، كما أن هذا الحظر قد ورد بالعهدة العمرية، وهكذا عاش اليهود في مختلف بلدان حوض البحر المتوسط، واختصوا بالعمالة المالية والتجارية والإدارية وصناعة العقاقير وسواها، وكان هذا الانتشار هو الشتات الكبير.

بودي التعرض لدراسة تاريخ اليهود في العصور الوسطى في أوربا الغربية، وخاصة في إنكلترا وفرنسا، ولعل ذلك يكون في مناسبة أخرى، فقد وقفت على مادة ممتازة عن يهود انكلترا في تاريخ متى باريس الذي هو أعظم مؤرخي انكلترا في العصور الوسطى، وقد ترجمت هذا الكتاب الكبير، وطبعته ضمن كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، كما أنني كنت قد أصدرت سلسلة مؤلفة من ستة أجزاء بعنوان: «القدس في التاريخ» بودي تطويرها إن شاء الله وأعان.

ومنذ فتح العرب للأندلس لوحظ وجود جالية كبيرة من اليهود في هذه البلاد، وقد نعم اليهود بالتسامح والرفاهية في ظل المسلمين، لكن أعدادهم لم تتزايد حيث دخل سواد الناس في الإسلام، أو حافظوا على نصرانيتهم، ومع ذلك عندما قامت دولة الموحدين في المغرب الأقصى في القرن السادس للهجرة، واستولى عبد المؤمن بن علي الكومي، أول خلفاء هذه الدولة على الشمال الإفريقي، أصدر امراً ـ له مسوغاته ـ بضرورة دخول اليهود والنصارى في الإسلام، أو الجلاء، ونتيجة لذلك هاجر جل اليهود والنصارى من بلدان

المغرب الكبير إلى الأندلس، وقلة هي التي تظاهرت بالدخول بالإسلام، وقصد بعض اليهود مصر واستقروا بها، نذكر من أعلام هؤلاء محمد بن حسداي، وموسى بن ميمون، أكبر فلاسفة اليهود في العصور الوسطى.

وتعاون اليهود مع قادة الصليبيين في إسبانيا ضد المسلمين، فيما عرف باسم حروب الاسترداد أو بالحري حروب الاستغلاب، وظل اليهود لهم مكانتهم وأدوارهم في الأندلس حتى ما بعد سقوط غرناطة وقيام محاكم التفتيش، حيث جرى إرغام المسلمين على دخول المسيحية أو الهجرة إلى بلدان المغرب، وشمل هذا اليهود، ولذلك تجمعت أعداد كبيرة من اليهود في المغرب، لكن لم يستقر معظمهم هناك، حيث حملتهم أساطيل السلطان العثماني سليمان القانوني إلى سالونيك، وإلى القدس، وبقيت أعداد كبيرة منهم في الشمال الإفريقي، خاصة في المغرب الأقصى، وأطلق على يهود الأندلس اسم السفرديم، ومع هذا لم يكن هؤلاء هم الأكثر عدداً بين يهود العالم الأوربي، فالأكثرية هم الذين عرفوا باسم الأشكناز، وكان هؤلاء في بلدان أوربة الشرقية، يسكنون الأرياف ويعمل بعضهم في مجال المبادلات التجارية المحلية، وظلوا كذلك حتى أواخر القرن السابع عشر[1]، وفي القرن الثامن عشر حدثت تبدلات هائلة، هيأت الفرص ليهود الأشكناز للقدوم إلى أوربا الغربية، وللهجرة إلى العالم الجديد، ولاشك أن بعض يهود فرنسا وإنكلترا، وأهم منهم اليهود الاسبان الذين تظاهروا بالدخول بالمسيحية وعرفوا باسم المارانوس Marranos قد مهدوا السبل أمام الأشكناز للقدوم إلى العالم الغربي، وأنا سوف أتحدث عن هذا بشيء من الاختصار اعتماداً على بعض الدراسات اليهودية ولاسيما كتاب «كتاب تاريخ الشعب اليهودي» تحرير: هـ. هـ. بن ساسون (صدر بالإنكليزية عام 1976 من قبل جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية)، لكن ما هو سبب توفر أعداد كبيرة جداً من اليهود في أوربا الشرقية؟ هذا ما يجيب عليه كتابنا الذي نقدم له، ولذلك سأكتفي بسرد أخبار انتشار الأشكناز من أوربا الشرقية إلى أوربا الغربية والعالم الجديد.

---

(1) A History of the Jewish People, pp510-513, 583-592, 528-639.

ومع نهاية العصور الوسطى في أوربا ومن ثم الانتقال نحو العصور الحديثة، وإرساء القواعد للعالم الجديد، كان هناك اختراع الطباعة، والاكتشافات الجغرافية الكبيرة، والتحول في طرق التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وزيادة أهمية أقاليم شمالي أوربة، وتمتين أوضاع الدول الأوربية سياسيا، وترافق هذا مع الإصلاحات الدينية، وعن هذا الإصلاح الديني وأسباب أخرى كانت الحروب الداخلية الأوربية وقد كان لهذا في البداية تأثيرات سلبية على أوضاع اليهود، لكن ما لبث الحال أن تغير كثيرا.

وكان اليهود قد تعرضوا للطرد من أقاليم أوربا الغربية منذ نهاية القرن الثالث عشر، وقد اكتملت أعمال الطرد هذه في القرن السادس عشر م، وفي القرن السابع عشر، كانت هناك منطقتان رئيستان قطنتا من قبل أعداد كبيرة من اليهود، وهما: المملكة الليتوانية البولندية، والسلطنة العثمانية، وباستثناء هاتين المنطقتين، كانت هناك أعداد ضئيلة من اليهود في بلدان صغيرة في ألمانيا وإيطاليا، ولم يصل عدد اليهود في العالم كله في منتصف القرن السابع عشر إلى المليون، وكانوا مقسومين إلى حد ما بين الأشكناز والسفرديم، ومنذ القرن السابع عشر بدأ اليهود يغيرون اتجاهات تحركاتهم وهجراتهم، حيث ازداد إقبالهم على الهجرة إلى المراكز التجارية المتطورة في الغرب الأوربي، ومع الأيام تضاعفت أعداد اليهود في بلدان هذه المراكز، وقاد هذا إلى حالة جديدة، حيث كان اليهود قبل هذا مبعثرون في مختلف البلدان (الشتات)، وكانوا في أوربا الشرقية يسكنون الأرياف، ويمارسون أعمال السمسرة والضمان الزراعي، أما الآن فأخذوا يتجمعون في البلدان الغربية، وهكذا شكلوا بسرعة جاليات كبيرة تمكنت من شغل أدوار جديدة في الحياة الاقتصادية ثم الثقافية، ومن ثم ممارسة النفوذ السياسي، الأمر الذي تجلى في الغرب الأوربي في القرن العشرين.

وكان جل الذين تجمعوا في مراكز الغرب الأوربي ولاسيما في إنكلترا من اليهود الأشكناز، ومثل ذلك في دول ألمانيا، وكذلك في فرنسا، وهكذا اسهم اليهود تجاريا خلال الحروب الأوربية، كما وجدوا أنفسهم وقد انشغلوا في تجارة المستعمرات الأوربية، وكانت بداية ذلك في العالم الجديد، وساعد اليهود الفرنسيين على تمتين حكمهم في

مستعمراتهم في أمريكا الشمالية (كندا) في القرن الثامن عشر، وعندما انتزع الانكليز نيو أمستردام من الهولنديين، ليسموها بعد ذلك نيويورك، كان لليهود دورهم في ذلك، كما استقرت أعداد منهم في هذه المدينة حيث تكاثروا فيما بعد.

واحتكر اليهود عدداً من التجارات، ولاسيما تجارة الألماس المستخرج من العالم الجديد، وأهم من هذا احتكار بعض السلع الأخرى، وكان أخطرها توريدهم لأعداد كبيرة جداً من الرقيق الأسود من أفريقيا إلى العالم الجديد، خاصة إلى ما سيعرف باسم الولايات المتحدة.

وتمكن اليهود من جمع ثروات كبيرة، وظهرت بين صفوفهم أسر مصرفية ثرية جداً، كان لها دور في القرن العشرين في الغرب الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية ومازال[1].

والذي أثرته في الصفحات الماضية يحتاج إلى دراسات أوفى، ومصادر أكثر، وهذا ما لا يمكن لفرد واحد أن يقوم به، ولقد تأخرنا كثيراً في إقامة مؤسسات بحثية حول اليهود واليهودية، لأن هذا يعني الأمة العربية كلها، ويعني المسلمين أجمع، لا بل يعني البشرية كلها، ونحن يمكننا أن نجد في السيرة النبوية أسس فكرة المؤسسات البحثية، فبعد الهجرة إلى المدينة، والعمل على إنشاء النواة الأولى للأمة الإسلامية، كان اليهود هم العدو الأخطر والأشد شراسة، ولذلك ندب صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه لتعلم لسان يهود، ولماذا لا تندب الحكومات العربية والإسلامية والمؤسسات التعليمية والشرعية فيها، نفسها إلى تأسيس مراكز للبحث في اليهودية والصهيونية، علماً بأن محاولات إرضاء الصهاينة غير مجدية، والقرآن الكريم قد نبهنا إلى هذا.

وأنا شخصياً عازم - بعون الله وتوفيقه - على متابعة العمل البحثي في هذا الميدان الخطير، وأذكر الآن بأن أول من أثار الانتباه إلى موضوع تاريخ اليهود الخزر هو **المرحوم الرئيس حافظ الأسد**، كما أنه هو أول من نبهني إلى موضوع تاريخ نجمة داود، حيث

---

(1) A History of the Jewish people, pp733-740.

حيث هناك المزيد من التفاصيل.

عرفت أنها تنتسب إلى داود الروئي الذي ظهر في العراق في القرن الثاني عشر، وادعى بأنه مسيح يهود المنتظر، ولدى متابعة البحث عرفت خبر داود روئي ثاني ظهر في ما بين مصر وفلسطين في العصر العثماني، ومثل ذلك اقتادني المزيد من الأبحاث إلى التعرف إلى بطلان ما ادعاه اليهود في أسفار العهد القديم، وإلى أن اسم يهود لا علاقة له البتة بسبط من أسباط بني إسرائيل اسمه يهوذا، فبنوا إسرائيل أمة قد خلت، واندثرت أخبارها ولا علاقة لليهود بالمؤمنين الأصلاء من بني إسرائيل، الذين آمنوا برسالة النبي موسى عليه السلام، الذي هو أخ كريم لنبينا محمد ﷺ، بشر به، وبه آمن ولرسالته اتبع، لأن الدين عند الله الإسلام.

من الله جل وعلا أرجو التوفيق والعون والهداية، وله الحمد والشكر دائما وأبدا، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم ومن التزم بهداه وسننه.

دمشق

13 ـ صفر 1425 هـ. **سهيل زكار**

3 ـ نيسان 2004م.

طبعات أختام اكتشفت في مقاطعة يهود

يهد

يه

يهود

يهود (على سطرين)

يهود (على درهم فضة)

فلسطين القديمة

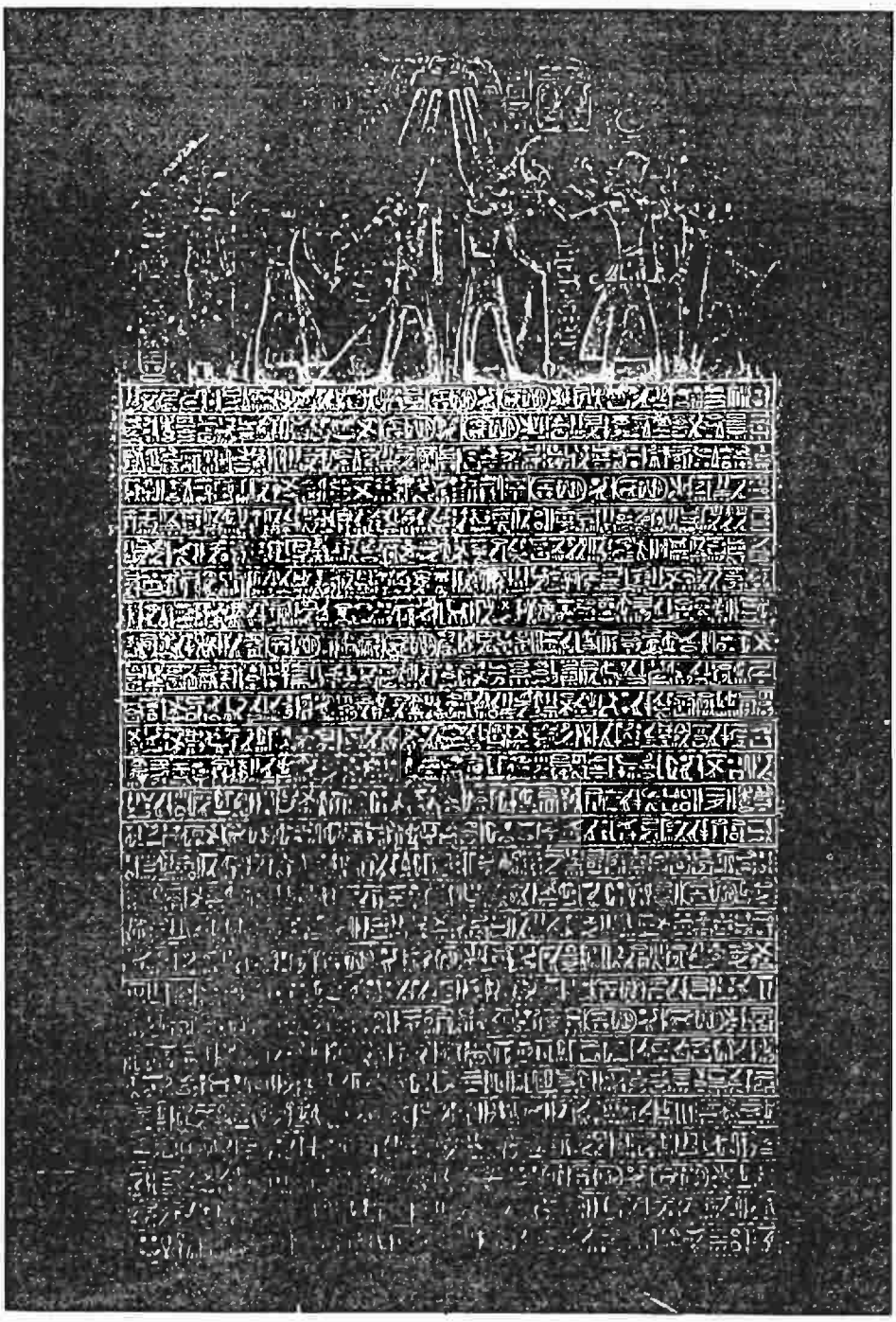

لوحة مرنبتاح

 تسعة

---

①   تحنو [ليبيا]

②   خاني [الحثيين]

③   كنعان [سوريا]

④   يسقراني [يقولون عسقلان]

⑤   جزر

⑥   ينعم

⑦   يازير = يازور [فلسطين]

⑧   يار = يارين [لبنان]

يقولون:

يازير يار

تعني إسرائيل

⑨   خال = [يقولون جرار]

تفصيلات السطر 26 من نقش مرنبتاح

مومياء رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) الذي قالوا أولاً بأنه كان فرعون الخروج ووالد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) صاحب النقش الذي قالوا بأن كلمة إسرائيل قد وردت فيه، وأنه هو فرعون الخروج

واحد من الرقم الفخارية لرسائل تل العمارنة

كُتبت العربية الفصحى (العدنانية) بخليط من المسند، والكتابة المصرية (المسماة بالهيروغليفية)، وحرف الجزم (الأحرف التي نستعملها الآن).

نقش رم [٢] نسبة إلى جبل رم شمال خليج العقبة

التفسير: قاد عليّ جيشه وانتهى بأرضٍ ترضى لكلب. جيشه عدا إلى الكمة (مصر) سطرو كوم (باتجاه الكوم) ر ع الرب.

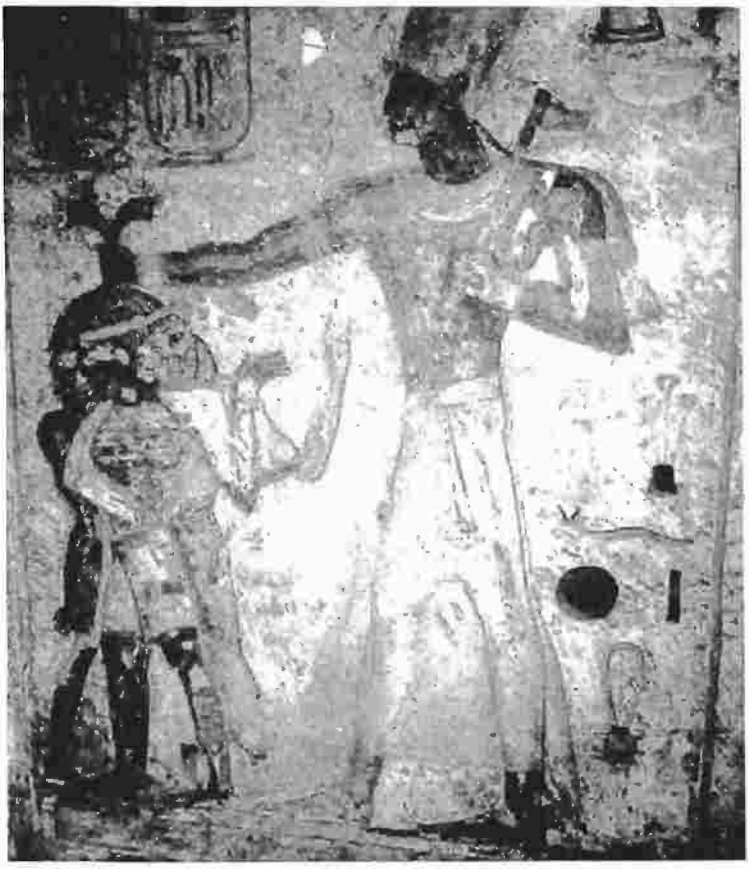

رعمسيس الثاني

قابض على ثلاثة رؤوس بها وجوه: ليبية ونوبية وسورية (آسيوية)

صورة من أرضية إحدى غرف قصر أخناتون تحتوي على صفين من الصور: سورية وليبية

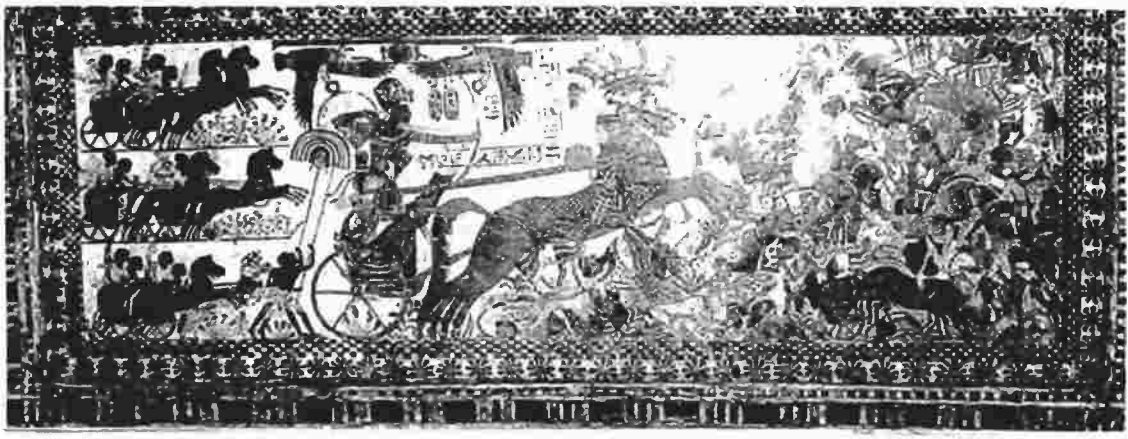

لوحة مرسومة على كرسي من الخشب كان يوضع أسفل كرسي توت عنخ آمون ويحمل صور وجوه ليبية ونوبية.

مقدمة المعرب

يلاحظ المتتبع لأخبار الفتوحات العربية أنها بدأت أولاً على جبهتين هما: الشام والعراق، ضد عدوين هما: الامبراطورية الساسانية والروم البيزنطيين، وقد ظهرت معالم تغير هذا الحال بعد النجاحات الحاسمة في اليرموك والقادسية وإثر مؤتمر الجابية الذي عقد برئاسة الخليفة عمر بن الخطاب سنة 17هـ/ 638م، فقد توزعت جيوش الشام الآن على ثلاث جبهات هي: مصر، آسيا الصغرى، ما وراء الجزيرة ـ أرمينيا وما تلاها ـ والآخر اتحد بجيش الشام لما وراء الجزيرة وعمل في ظل قيادة الكوفة وبمشاركة شامية مستمرة.

وقد تمكن جيش جبهة مصر من فتحها، وبعد مصر صارت الجبهة هي الشمال الإفريقي، وبعد ما كملت أعمال الفتوح في الشمال الإفريقي، تحولت الجبهة إلى الأندلس وظلت الفتوحات مستمرة حتى توقفت إلى أبعد الحدود إثر معركة بلاط الشهداء، هذا من جهة، وسعى من جهة أخرى جيش جبهة آسية الصغرى نحو فتح القسطنطينية فأخفق، ولهذا قال الباحثون الأوربيون لقد حمت بواتيه وأسوار القسطنطينية أوربا من التوغل العربي.

ودون الدخول في تفاصيل مناقشات هذه المقولة والمواقف المتخذة حيالها أود أن أبين أنه كان هنالك منفذ ثالث إلى أوربا عبر جبهة ما وراء الجزيرة ـ أرمينيا وقد دعيت هذه الجبهة في العصر الأموي باسم جبهة الخزر وذلك نسبة إلى شعب الخزر التركي.

لقد خاض العرب معارك قاسية جداً ضد الخزر، وألحقوا بهم عدة هزائم، لكن لسوء الحظ تواءمت انتصارات العرب الحاسمة مع تفجر أحداث الفتنة الثالثة التي أودت

بحياة الخليفة الوليد الثاني واعتلاء يزيد الناقص العرش الأموي وما تلا ذلك من أحداث قادت إلى سقوط الخلافة الأموية.

وكان الخزر قد أسسوا امبراطورية كبيرة، وقد اعتنقت الطبقات الحاكمة فيها الديانة اليهودية وباتت هذه الامبراطورية تعرف بدولة يهود الخزر، وعاشت هذه الدولة بضعة قرون، وبعدما سقطت ظل يهودها يقطنون أوربا الشرقية كما هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بقية أجزاء أوربا، ويشكل المنحدرون من يهود الخزر في أيامنا هذه ما ليس أقل من تسعين بالمئة من يهود العالم.

إن موضوع دولة الخزر اليهودية موضوع خطير جداً، يرتبط من جانب بماضي العرب في العصر الأموي والعباسي، ومن جانب آخر بحاضر العرب ومسألة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، وقد تناوله بالبحث عدد كبير من الباحثين كان أفضلهم على الإجمال المؤرخ م. دنلوب حيث تناول هذا الموضوع بشكل أكاديمي موثق اعتمد على عدد كبير من المصادر بمختلف اللغات الوسيطة والمعاصرة.

وفكرت منذ عدة سنوات بترجمة هذا الكتاب وتيسيره للقارئ العربي، وأعلنت عن هذه النية، ونظراً لكثرة مشاغلي فكرت بنقل الكتاب بالتعاون مع أحد الأصدقاء، ودفعت الكتاب أولاً إلى صديق تعاونت معه ونشرنا أكثر من كتاب، وبقي لديه عدة أشهر ثم أعاده، وذلك أنه وجد صعوبة كبيرة في التعامل معه، وكان ـ حسب قوله ـ يحتاج إلى القاموس كل لحظة، وأخذت الكتاب، ثم حدث أن اتفقت مع صديق جديد على ترجمته، وغاب الكتاب لدى هذا الصديق أكثر من سنة ثم عاد إلي وبرفقته أوراق تتضمن نتائج ما بذل من جهد.

وكانت هذه النتائج مخيبة للآمال، ولهذا السبب عاد إلي الكتاب مع الأوراق هذه بالواسطة ولم أر صديقي صاحبها منذ ذلك الحين، أي منذ قرابة الثلاث سنوات، وأمام هذه المواجهة الجديدة شرعت بالعمل بالكتاب، وخلال عمل متقطع دام أكثر من سنة تمكنت أخيراً من نقله إلى العربية.

ولا أخفي أنني وجدت صعوبة كبيرة في الترجمة، لكن من قال إن الترجمة أسهل من التحقيق ومن التأليف؟! هنالك ضرورة مستمرة وحاجة دائمة للترجمة سواءً كان النص صعباً أم سهلاً، فالقضية ترتبط بأهمية الموضوع وبالشعور بالواجب وبالوفاء بالعهد.

لقد سألني صديق منذ أيام: كيف تستطيع أن تخرج كل عام عدة كتب؟ وجوابي لهذا السؤال هو: الساعة تشير الآن إلى منتصف الليل، ويومي هذا قد بدأته مثل غيره من الأيام في الصباح الباكر، فكل يوم أجلس وراء مكتبي ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة، أجلس في قاعة فيها بضعة آلاف من المجلدات تحوي جلّ ما يحتاجه الباحث في التاريخ، وأملك الآن من خبرة البحث المستمر والعمل المتواصل ما عمره أكثر من ثلاثة عقود من السنين، مع همة وطموح أريدهما أن يرقيا إلى درجة عظمة ماضي العرب والإسلام، وثقة وإيمان راسخ بتوفيق الله وعونه، فهذا العمل خالص لوجهه وهو سبيلي إلى الجهاد، الذي هو الآن فرض عين على جميع المسلمين.

إنني أؤمن بالعمل وأعتقد أن جوهر الإنسان أكرم الجواهر كلما عرضته للصقل والشدائد ازداد توهجاً وبريقاً، والإنسان كتب له العيش في هذه الحياة الدنيا مرة واحدة فلتكن كلها عطاء وجهد وفائدة.

إنها رسالة اخترتها على طواعية وسأستمر في أدائها حتى يقضي الله تعالى أمره، إنني أتعشق الكتاب وأجد فيه المتعة والفائدة التي لا يدانيها فائدة، فمن ذاق لذة المعرفة، والكشف عنها هانت أمامه كل اللذات والأطايب والثروات، وحين أتعامل مع أي كتاب أعطيه كل ما يستحقه وما أقدر عليه، وحين أفعل هذا أعرف سلفاً أن ما أجهله أكثر مما أعرفه وأن العصمة لم تكتب إلا لنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقديماً كان السلف الصالح يقول: رحم الله عبداً دلنا على، أو ردَّ علينا أخطاءنا ومساوئنا.

رحم الله من فعل هذا وغفر له، إنما بنية صالحة لا بسباب وتشهير لتغطية التقصير وعدم العطاء، أنا من أمة منها الجاحظ والطبري، وابن عساكر وابن العديم والمقريزي وغيرهم كثير، ومن المعروف أن عصر ابن عساكر يشبه في كثير من المظاهر عصرنا هذا، وفي تلك الأيام ومع بشائر النصر وتحرير الأرض من الصليبيين كتب ابن عساكر فيما كتبه تاريخ دمشق في ثمانين مجلدة، ولقد لاقى ابن عساكر العناية والرعاية والتشجيع من مسلمي دمشق والشام ومن نور الدين زنكي ومن بعده صلاح الدين، وأقولها بكل صراحة أن التشجيع في أيامنا مصدره القارئ والقارئ فقط.

لقد رسم الله تعالى لبلاد الشام قدراً محدداً، وقدر هذه البلاد كان في الماضي تحمل أعباء أعمال الفتوحات العربية الكبرى، فجند الشام هم الذين أوصلوا الإسلام إلى قلب أوربا وأعالي الفولغا والصين وكل مكان من دنيا الإنسان وحين تعطلت إرادة الشام عانى العرب من الانتكاسات، والشام هي التي تحملت أوزار الحروب الصليبية، وحولت تيار مدّ الغزو المغولي إلى تيار معاكس، والشام وحدها تقف الآن في وجه الصهيونية، فما قضي لم يتغير ولن يتغير أبداً.

من المتوجب أن يتماشى دور الشام الثقافي والحضاري مع دورها السياسي والعسكري ويتواءم، فنور الدين بنى لابن عساكر أول جامعة «للحديث» من نوعها في تاريخ الإسلام وشجعه على تصنيف تاريخ دمشق، وذلك في وقت كان يجاهد فيه الفرنجة ويسعى إلى طردهم، وإلى التحرير والوحدة.

ومازلت أذكر أنني دخلت منذ سنوات (1978) إلى حانوت لبيع الكتب في مراكش في المغرب الأقصى، وبينما أبحث بين محتويات الحانوت دخل رجل وقام مثلي بالبحث ثم التفت نحو صاحب الحانوت فسأله: أما من جديد؟ فأجابه لا يا سيدي، فعقب على إجابته بقوله: يبدو أن ينابيع المشرق قد نضبت! فالتفت نحوه وقلت له: ولم لا تفجرون ينابيع الفكر هنا؟ فأجابني بعدما عرف أنني من الشام: يا أخانا أنتم جعلتمونا نعتمد عليكم دائماً، فأنتم جلبتم إلينا الإسلام والمعرفة والمدنية ولم تتوقفوا قط عن إمدادنا بكل ما نحتاجه خلال القرون الطويلة الماضية، لمَ توقفتم الآن؟ لمَ لا تصدرون إلينا شيئاً سوى الكتب المعاد طبعها في بيروت؟ أين الجديد لديكم؟ النظام القائم لدينا يعتمد على ما ترسلونه، وليس من السهل تغيير هذا النظام وأخشى ما أخشاه أنكم إذا توقفتم عن العطاء أن نجد أنفسنا مضطرين إلى الاستيراد من أوربا، بعدما قاومنا ذلك، وبعدما قطعنا أشواطاً واسعة في طريق التعريب.

لقد آن الأوان لتحول الجامعات من معاهد لتخريج المعلمين إلى معاهد للبحث والعطاء، وبات من المتوجب على الدولة أن تدعم القطاع الثقافي مثلما تدعم القطاع الدفاعي، بات عليها أن تدعم الكتاب سعراً وتداولاً مثلما تدعم الرغيف، من المتوجب وجود مركز ثقافي في كل شارع في المدينة والقرية فهذا سبيل يساعد على إيجاد المجتمع الواحد الموحد، المجتمع الحضاري المعطاء، مجتمع المواطنين الواعين الأحرار، فبالأحرار

من المواطنين يمكن تحرير الأرض وإزالة الظلم والفوارق وتحقيق الوحدة، لابد من التعجيل بذلك، وإلا فاتنا الركب، وآنذاك سلام على العرب والعروبة.

والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا سيد العرب وقائدهم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق 1 جمادى الآخرة 1406

9 شباط 1986

سهيل زكار

المدخل

اعتاد قراء جيبون على سماع اسم «ليو الخزري»، امبراطور الامبراطورية البيزنطية في القرن الثامن الميلادي، الذي كانت أمه أميرة خزرية تزوجت من قسطنطين الخامس، ولقد جاء ذكر الخزر مراراً وتكراراً لدى الكتاب البيزنطيين، ومن الواضح أنه كان لهم وزنهم الكبير وتأثيرهم على الأجواء السياسية في تلك الأيام، ومما يوضح هذا أن الرسائل التي كانت ترسل في القرن العاشر من عاصمة البوسفور إلى ملك الخزر الذي عرف باسم «الخاقان» حملت ختماً ذهبياً أوسع وأرشق من أختام الرسائل التي أرسلت إلى البابا في روما وإلى خلفاء شارلمان[1].

ويحتل الخزر مكانة أخرى جديرة بعنايتنا واهتمامنا، فلقد قامت أراضيهم فيما بين مجرى الفولغا الأدنى، والسفوح الشمالية لجبال القوقاز، وامتدت إلى الأراضي القائمة حول بحر آزوف، وفي القرن التاسع إلى ما وراء غربي مدينة كييف ووسط الدينبر، كل هذا في وقت مارست دولتهم فيه السيطرة والنفوذ على رجال القبائل في الشرق امتداداً حتى نهر جيحون، ووقعت بلاد الخزر عبر الخط الطبيعي لتوسع العرب.

فبعد سنوات من وفاة النبي ﷺ (632م) اندفعت جيوش الخلافة شمالاً من خلال حطام الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، اندفعت وهي تجرف كل شيء أمامها حتى وصلت حاجز جبال القوقاز العظيمة، وكان بإمكان العرب ما أن يجتازوا هذا الحاجز حتى يصبح الطريق مفتوحاً أمامهم إلى أراضي أوربا الشرقية، والذي حدث هو أن العرب قد واجهوا على خط القوقاز قوى عسكرية منظمة تمكنت في النهاية من منعهم من مد فتوحاتهم في هذا الاتجاه.

---

(1) قسطنطين بروفي روغنتوس «الرسوم البيزنطية» تحقيق بون: 1/ 690.

وبناء عليه فإن الحروب العربية الخزرية التي دامت لمدة زادت على المئة سنة لها أهمية تاريخية كبيرة[1]، وحدث على أرض تور أن تمكن فرنجة شارل مارتل من عكس تيار مدّ الفتوحات العربية، وفي حوالي الوقت نفسه لم يكن التهديد الذي تعرضت له أوروبا الشرقية أقل حدة، ومن الواضح أن المنتصرين المسلمين قد تصدت لهم وأوقفتهم قوات مملكة الخزر.

وهكذا يمكن القول تجاوزاً في هذا الباب: كان الخزر مثلهم مثل الفرنجة أبطال الصليبية وحماتها، علماً بأنهم انتموا إلى بداه - أو شبه بداة - وسط آسية وكانوا آنذاك شامانيين[2]، وقد تحولوا فيما بعد كما سنرى إلى اليهودية وهذه مسألة ليست أقل أهمية بالنسبة لهم، ولاشك بناء على هذا أن بيزنطة معقل الحضارة الأوربية في الشرق، كانت ستجد نفسها مطوقة من قبل العرب لو أن الخزر لم يكونوا في المنطقة الواقعة إلى شمال القوقاز، ولاشك آنذاك كانت صورة تاريخ المسيحية، والإسلام قد أخذت - كما هو متوقع - شكلاً يختلف عما نعرفه.

والسؤال الذي يمكن أن نسأله هو: لماذا لم تجر حتى الآن أية محاولة لكتابة تاريخ الخزر، مادام أنه يستحق التدوين وهنالك مواد كافية حوله؟ وفي الحقيقة لقد قدم ج. ب بري J.B.Bury، وهو مؤرخ من كمبرج، عرضاً تاريخياً متكاملاً عن الخزر في فصل من فصول كتابه «تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية»[3]، ويمكن عدّ ما جاء في هذا الفصل أفضل عرض متوفر حتى الآن حول الموضوع علماً أن هنالك بعض الأبحاث المتفرقة التي تناولت جوانب منه مع إشارات عابرة وردت في بعض الكتب الحديثة.

ويبدو أن السبب الرئيسي الذي حال دون معرفتنا بتاريخ الخزر لم يتعلق بانعدام الاهتمام به ولا بقلة المعلومات حوله، ولكن بصعوبة التعامل مع المصادر الموجودة حوله، فهذه المصادر قد كتبت بعدة لغات هي: الإغريقية، والعربية، والعبرية، والسريانية،

---

(1) قلل من تقديره من قبل كافيغناك في «تاريخ العصر» الطبعة السابعة (باريس، 1931: 169.

(2) يؤمنون بالديانة الشامانية البدائية.

(3) الفصل الثامن (لندن 1912).

والأرمنية، والجورجية، والروسية، والفارسية، والتركية، لا بل حتى في الصينية أيضاً، أضف إلى هذا أن المعلومات المتوفرة في هذه المصادر التي لا يمكن أن نتوقع وجود إنسان يجيدها معاً، هي متناقضة وغامضة ولا تقدم شيئاً محدداً ويقينياً.

ولقد ازدادت مصادر تاريخ الخزر مع ازدياد معارفنا ونموها حول تاريخ الشرق، فلقد شهد القرن الأخير نشر عدد كبير من كتب الجغرافيا والتاريخ العربية التي تحوي الكثير من المعلومات عن الخزر، كما ظهر إلى الوجود بعض المواد العبرية الثمينة[1]، وهكذا عظم حجم المصادر حول الخزر، وعبَّر النقاد عن وجهات نظرهم حول تاريخ الخزر كما جاء في سلسلة أخرى من اللغات هامة وعظيمة ولا تقل شأناً عن المصادر الأصيلة.

ومن المؤكد أن الوضع بات مختلفاً جداً عنه أيام بوكستروف Buxtrof عندما لم يجد ما يفيد من المعلومات حولهم فربطهم بكسرى فارس، إنما على الرغم من الإضافات العظيمة التي ازدادت بها معلوماتنا، إن محاولة تتبع آثار تاريخ الخزر ليست ـ كما سنرى في الصفحات المقبلة ـ عملية إبحار سهلة.

وكان قبل نشوب الحرب الأخيرة قد عزم كل من الأستاذ بول كاهل الذي كان آنذاك رئيس قسم الأبحاث الشرقية في جامعة بون، والأستاذ هنري غريغوري من جامعة بروكسل، على العمل معاً في إنتاج كتاب عن الخزر، وكان من المتوقع أن يكون هذا الكتاب هاماً وموثقاً، لكن لسوء الحظ نشوب الحرب والظروف التي استجدت تدخلت بخططهما، واقترح منذ عدة سنوات الأستاذ كاهل عليّ تولي مهام هذا البحث، وكنت مسروراً جداً لتلبية رغبته هذه، وملكت أثناء القيام بالبحث مزية وفوائد القدرة على استشارة الأستاذ كاهل وقت الحاجة، وأنا مدين له كثيراً في جوانب لا تعد ولا تحصى، فبدونه لم يكن بالإمكان كتابة الكتاب، ولقد ترك لي حرية اختيار المواد وترتيبها وعرضها، وفي الوقت الذي تأثرت فيه بآرائه حول الموضوع ككل هو ليس مسؤولاً عن وجهات النظر التي عرضتها ولا عن تقصيري، وأخطائي التي اقترفتها في موضوع كهذا لا يمكن تجنب الوقوع في الخطأ فيه.

---

(1) أسهم إخراج محتويات جنيزا كنيس القاهرة القديمة إلى هذا الموضوع وإلى مسائل أخرى. أنظر محاضرات بول كاهل بعنوان «جنيزا القاهرة» (لندن 1947): 00014.

ولقد توجب علي العودة إلى المواد المتوفرة والعمل من خلالها على تكوين صورة متماسكة ورواية وافية لتاريخ الخزر، وليس هنالك من جديد في نصوص المصادر المعروفة فيما عدا بعض القراءات المختلفة لبعض مواد مخطوطات الاصطخري والمسعودي التي أرسلها الأستاذ كاهل إليّ من أكسفورد، مع أن كتبهما قد طبعت منذ زمن طويل، وأدين للأستاذ كاهل إرساله لي برواية ابن سعيد، الجغرافي الأندلسي حول الخزر.

هذا وهنالك نص غير متنبه إليه ورد لدى اليعقوبي قد أشار به إلى نظام الملكية المزدوجة لدى الخزر، كما وجدت رواية مفيدة عن بعض حوادث تاريخ الخزر في مخطوطة فارسية محفوظة في مكتبة جامعة لندن، وأنتهز الفرصة هنا للتعبير عن شكري لسلطات هذه الجامعة، وقد وقفت على إشارة للخزر وردت في الصينية، لا أعلم أحداً وقف عليها من قبل، وذلك في حدود معرفتي، كما لم أجد إشارة إليها من قبل المهتمين المعاصرين بالموضوع، وكان الأستاذ هالون، الذي جاء موته خسارة شخصية لعدد من المستشرقين وللدراسات الاستشراقية، قد منحني مساعدات جمة في عملي هذا، فلربما لم يكن بإمكاني الوقوف على النصوص الإغريقية عند سواه.

وسأعالج في ثنايا هذا الكتاب الموضوعات التالية: بدايات تاريخ الخزر، وصلاتهم المحتملة مع الساسانيين قبل الإسلام، والصلات الخزرية البيزنطية في مختلف الأوقات، والحروب مع العرب، وتحول الخزر إلى اليهودية، والمراسلات التي يقال أنها جرت بين الأندلس ودولة الخزر في القرن العاشر، وعلاقات الخزر بالروس، وأخيراً سقوط الخزر وزوال دولتهم من الوجود.

والخلاف حول بعض هذه القضايا شديد جداً ولاحاجة للقارئ للانزعاج لعدم التوصل إلى نتائج حاسمة لاسيما حول تاريخ التحول إلى اليهودية والسقوط النهائي، فهنا سنتفحص مختلف الروايات ووجهات النظر المتباينة، ونحن مدعوون أثناء العمل في الكتاب إلى تتبع آثار الخزر بعيداً في الغرب حتى الدانمارك، وفي الشرق حتى الصين، وأن نبحث فيما قيل: إنهم اعتنقوا في بعض الأوقات الإسلام والمسيحية أيضاً، ذلك أن اعتناقهم لليهودية حقيقة لا ريب فيها، وقد بذل المؤلف ما أوتيه من قدرة على توضيح ما

جاء في الروايات الغامضة، والتوفيق بين الاختلافات التي وردت في المصادر، وهو يأمل أيضاً أن تكون ترجمته للنصوص العربية الهامة الواردة في الكتاب صحيحة ودقيقة.

ويقف بين حشد الكتب والمقالات التي عدت إليها كتابان متميزان ومثيران، وأول هذين الكتابين قديم إلى حد ما، ويختلف في محصلاته اختلافاً جوهرياً عما قيل في كتابنا هذا وهو كتاب ج. مرقوارت:

Osteruropaisch und ostasiatische sterif zuge[1].

والكتاب الثاني من تأليف كوكوفتسوف:

Evreisko-Khazar skaya perepiska, vx veke[2].

وهذا الكتابان متباينان في المنهج والعرض، والألماني منهما متداخل وصعب القراءة، مع أنه يحتوي على فرضيات ثمينة – وكثيرة تتعلق بالحقبة التي نحن بصددها، أما الأستاذ الروسي فقد عالج موضوعاً محدداً، فقد كان أمامه نصف دزينة من الوثائق العبرية تتعلق بالمراسلات مع الأندلس، ومناقشة محتوياتها قد شملت موضوع تاريخ الخزر بأكمله مع إثارة جميع الفرضيات المتناقضة حوله.

وقد عالج مؤلفنا هذا الموضوع بوضوح كامل واختصار مفيد، وينبغي أن نضيف إليهما رسالة ابن فضلان حول رحلته إلى بلغار الفولغا، بتحقيق الأستاذ زكي وليدي توغان، وتحوي حواشي المحقق وملاحقة مواد عن الخزر لم تنشر من قبل[3]، ولقد أمكنني استخدام هذا الكتاب بفضل الأستاذ مينورسكي، وتحوي ترجمة الأستاذ مينورسكي لكتاب «حدود العالم» عن الفارسية مع حواشيه معلومات جديدة وهامة[4]، ولا يمكنني أن أغفل ذكر البحث الرائع عن مصادر تاريخ الخزر الذي أعده فرع

---

(1) ليبزغ 1903.

(2) نشرت «مراسلات الخزر للقرن العاشر» من قبل الأكاديمية الروسية. لينينغراد 1932.

(3) رسالة ابن فضلان أ. ك. م. 24/ 3 (ليبزغ 1939) وقدمت خلاصة مفيدة مع الحواشي مع ترجمة إنكليزية لمواد زكي وليدي عن رحلة ابن فضلان وذلك من قبل روبرت ب. بليك مع رتشارد. ن. فراي بعنوان «ملاحظات حول رسالة ابن فضلان» في دورية بيزنطية 1/ 2/ 1949، 7 – 37.

(4) سلسلة ذكرى جب الجديدة: 11 (1937).

الدراسات السلافية في مكتبة نيويورك العامة ونشر من قبل أ. يارمولنسكي A. Yarmolinsky في دورية المكتبة عام 1938، وقد لفت انتباهي له الدكتور سيسل روث Cecil Roth من أكسفورد..

وعلي أن أذكر باختصار الكتب الكبيرة لكل من أرتمونوف .Artamonov وبولياك .Poliak وزاتشاكووسكي .Zajaczkowski، وهم جميعاً من عصر واحد تقريباً، وقد عالجوا مسألة الخزر من وجهات نظر مختلفة، وظهر كتاب أرتمونوف Ocherkidrevneishei istori Khazar[1]. في سنة 1937، وتماشياً مع العنوان والتزاماً به عالج هذا الكتاب التاريخ المبكر للخزر، وتوقف مع تاريخ سنة 738م، وأوضح المؤلف في المقدمة أنه لا يعرف اللغات الشرقية، وقال إنه يكتب كآثاري، واهتم أرتمونوف بالخزر من باب علاقته بتاريخ بلاده فقط.

ومن الواضح أن الكتاب في نطاق ما حدده عبارة عن بحث إيجابي ومفيد للموضوع، ونشر أ. ن. بولياك كتابه (بالعبرية) بعنوان (قزاريا) في مدينة تل أبيب في سنة 1944 (ورأيت أولاً نسخة د. سيسل روث، ثم تسلمت فيما بعد نسخة منه بوساطة مساعدة د. س موراغ من القدس)، وقام هذا الكتاب الذي خطط له أن يكون الجزء الأول من بحث تاريخي مطول عن الخزر، قام بتطوير نظرية سلف للمؤلف أن طرحها في مقالة نشرها عام 1941 في دورية «صهيون» العبرية وذلك بعنوان «تحول الخزر إلى اليهودية»، بيد أنه قدم هنا وثائق أكثر ثراء لاسيما مما جاء بالمصادر العبرية، وقد تمت مناقشة نظرياته داخل كتابنا هذا.

فلقد كان هذا الكتاب موضع نقد كبير[2]، وكتب كتاب زاتشاكووسكي Ze studiow nadzagadnienien chazarskbim. (1947) من وجهة نظرية لغوية

---

(1) العنوان التالي «دراسات في تاريخ الخزر القديم» لينينغراد 1936.

(2) إن مطالعة م. لاندو في Qiryath sepher، 21 (1944) 19 – 24، بالعبرية. لم أر أ. اشكولي في Mozanaim: 18/ 298، 304، 375، 383 مع ردبوليا، المصدر نفسه: 19/ 288، 291، 348، 352 (تعود الإشارات إلى هذه الدوريات العبرية إلى د. موراغ).

تركية[1]، وألقى المؤلف وهو اختصاصي بالتركيات معروف، الضوء في كتابه هذا وفي عدد من المقالات على الأسماء الباقية مما له أصل خزري وذلك مما يمكن استخراجه من لهجة الحديث لدى اليهود «القرائين» في بولندا والقرم[2]، وقد عدّ هؤلاء «القرائين» الممثلين الرئيسين في هذه الأيام للخزر القدماء، وهو يميل إلى التقليل من أهمية الوثائق العبرية بدلاً من المغالاة في ذلك، وقام د. س سليغا Dr. S. Seliga من جامعة سانت أندروز بتقديم تسهيلات كبيرة إلي، وساعدني في دراسة هذه الأبحاث البولندية.

ويتوجب علي أخيراً أن أقدم الشكر إلى الأستاذ هـ. و. بيلي H. W. Bailley من كلية الملكة في جامعة كمبردج، والأستاذ و. مينورسكي والأستاذ س. ج. مولوويـر L. J. Mullaweir، من جامعة شيكاغو الذي تفضل بقراءة مخطوطة كتابي هذا فقد انتفعت كثيراً، وفي جوانب عدة، من اقتراحاته ونصائحه، كما علي أن أعبر عن شكري وامتناني للأستاذ فيليب حتي، ولمؤسسة جامعة برنستون للطباعة.

د. م. د

---

(1) نشرت دراسات حول مسألة الخزر من قبل الأكاديمية البولندية، كراكو. وهنالك. عرض عام مفصل في دورية «الإسلام» Der Islam. العدد 29 (1949): 96 – 103. قدمه و. برتساك.

(2) تتضمن المقالات الحديثة لاجاتشوسكي مقالة بعنوان: «مشكلة لغة الخزر» المجمع العلمي لبراسلو 1946. ومقالة بعنوان «الثقافة الخزرية وميراثها» My'sl Karaimska براسلو 1946.